www.kotobarabia.com

قصص

تنويعات على نغمة الجوع



www.kotobarabia.com

زهير البيومى

تنويعات على نغمة الجوع

زهير البيومى

تصميم الغلاف: نهاد

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

الإهـــداء

إلى قارورة العطر التي يسري أريجهـا فـي كـل أرجـاء حياتي...

إلى زوجتي الحبيبة (نادية)....

أهدي هذه المجموعة القصصية...

زهير البيومي

تنويعات على نغمة الجوع

-١-

ضقت ذرعاً بابني الذي كثرت مطالبه... مصـروفه الشهري... اشتراك النادي... الملابس الكثيرة فهو قد تمادى في الأناقة، هذا غير عبء المأكل والمشرب. رسوم الدراسة في المدرسة الخاصة واشـتراك سـيارة المدرسـة. وكـان إحساسي بالضيق يزداد يوماً بعد يوم... ليس ذلك رغبة مني في التقتير على ابني، لكن تفكيري في الضيق وإحساسي بـه ازداد وتبلور حين طلب ذلك الابن الذي لم يتعد الثامنة عشرة أن أشتري له سيارة خاصة له أسوة بـبعض زملائـه فـي المدرسة. كان يحدثني في الشرفة... شرفة قصـري الـذي يطل على الحي الفقير المعـروف باسـم ((معـروف))... قصري يطل على بيوت آيلـة للسـقوط وورش ودكـاكين صغيرة. حين كان ابني يطالبني بسيارة له ترامى إلى سمعي صوت امرأة فقيرة في منزل مجاور آيل للسقوط تصرخ في زوجها:

-أأنت رجل ... تخرج في الصـباح وتعـود فـي الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل دون عشاء للعيال... العيال نائمون على لحم بطنهم... هل تفهم معنى ذلك؟

قال الرجل في خجل وألم شديدين اختلطا بالثورة:

-وهل رأيتني أكلت وهم لا... أنا لا آكـل ألا مـا يتبقى منهم... وأقول (الحمد) وأنام جوعانا... أنام علـى الطوى... وأنت تعرفين أن صافي ما آخذه من المعلم خمسين جنيهاً... هل تكفي مسكنا و مأكلاً ومشرباً (وهدمة) لكل عيل كل سنة... وأنت وأنا مقدور علينا.

قال المرأة دون أن تخفت حدة صوتها:

-أنت وأنا رجال أما هم فأطفال.

ضحك الرجل رغم الألم وقال مداعباً زوجته:

-أنت أيضاً رجل يا فكيهة.

قالت المرأة في جد:

-طبعاً... أنا رجل... صرت رجلاً بعد أن تزوجتك وركّبتني الهم... صرت رجلاً هزيلاً... انظر وهل بقي في أنوثة... صرت إلى ضمور... وغدا لو أعطاك ا تتـزوج غيري..

تنويعات على نغمة الجوع

... أو إذا مت من الجوع تتزوج... أليس كذلك؟

نظرت إلى جسد المرأة الرجـل... وتأملتـه مليـاً فذهلت... كان من الهزال بحيث يشي تكوينها بأنها يمكن أن ترتدي ثياب زوجها دون أدنى فارق، وقال الرجـل مـداعباً زوجته ومطيباً خاطرها:

-أنا من غيرك أصبح يتيماً.

-قالت المرأة:

-ادخل في عبي... ادخل... وهل ينطلي علي هـذا الكلام.

استمر الرجل مداعباً زوجته وهو يهم باصـطحابها إلى حجرة النوم:

-ورحمة النبي سيفرجها ا يا فكيهة.... وستصـبح الدنيا حلوة ... تعالي... العيال نائمون في المندرة... تعالي نتذكر ليلة عرسنا.

قبل امرأته فضحكت وهي تدلف معه إلـى الـداخل وقالت في دلال لا يليق بجسدها النحيل المتآكل:

-لابد أكلت بالخارج يا ابن ال (....)

وأغلق الباب وسمعت أصواتاً رتيبة راحت تتوتر شيئاً فشيئاً في النهاية خمدت، وابتسمت وأنا في ألم.

لاحظ ابني شرودي فقال:

- مابك يا بابا... ماذا بك.

قلت له في حدة:

-لا شيء لا شيء اتركني الآن... اتركني.

وغادر الغرفة غاضباً مزمجراً، وترامى إلي صوته وهو يشكوني لأمه، فاشتعل غضبي وسخطي عليه وعلى أمه التي تدلله وعلى نفسي... على الحياة... على الحياة كلها، واستسلمت لخواطر وتأملات شتى، وصراع داخلي لا يعلم مداه إلا ا .

تذكرت (بافلوف) وتجاربه على كلبه الشهير، وخطر لي أنه فاته أن يجري تجارب نظريته (الفعل المنعكس الشرطي) على الإنسان كما أجراها على كلبه... وكذلك خطر لي أنه خرج بنظرية أو نتيجة هزيلة بالقياس إلى العبرة التي كان يمكن أن يخرج بها لو أنه لم يقصر تجاربه على تنظيم مواعيد طعام كلبه بالأجراس ثم قام بوضع الطعام

للكلاب في موعده دون جرس... لو أنه لاحظ أثراً على كلبه إذا جاع... لو أنه فكر فيما يمكن أن يكون... لو أنه تـرك لعاب كلبه يسيل في موعد الطعام ولم يضع له طعاماً... ماذا يحدث لو ظل الكلاب هكذا لعدة أيام... سيموت جوعاً حتماً إذا كان وفياً وأليفا... وسينهش لحمه... سيمزقه إرباً لو قرصه الجوع.

ولم أنم في تلك الليلة. راحت الصور المؤلمـة فـي العالم تنساب أمام عيني شريطاً سينمائياً... البلاد الغنية التي تتخلص من فائض الإنتاج حتى تحتفظ للسلعة بالسعر الـذي تريد... قمح أمريكا والمكسيك... بن البرازيل... ومنتجـات أخرى كثيرة في بلاد كثيرة لا تجود بهـا علـى الشـعوب الفقيرة. التخمة في بلاد والجوع في بلاد. القطـط والكـلاب حيت تجوع تأكل كل شيء كالخنازير... (تخمخم) لن أعجب يوماً لو أكلت الكلاب والقطط الضالة الخضـروات التـي لا تأكلها... ذلك لو جاعت جوعاً رهيباً. قطتي حين تشـبع لا تأكل بقايا الجاتوه... لا بد لها من قطعة جـاتوه كاملـة... ولعلها ترى في تلك اللحظة أني لم أنصفها إذ لم أقـدم لهـا الشوكة والسكين... وابني هذا قط سمين... كلب متخم... لا

بد أن التخمة ستصيبه يوماً بالسـعار... فالتخمـة كـالجوع تماماً... الإفراط فيهما يصيب بالسعار، وكيلو اللحم البلـدي بخمسة جنيهات يأكله ابني مشوياً، وغيره يقف فـي طـابور الجمعية إن أسعفه الرزق، وتذكرت طالب المدرسية الأجنبية الذي يبيع سندويتشات لحم الدجاج لزملائه نظير مصـروفهم خمسة وعشرين قرشاً للواحد وقلت إنه في هذه المدارس ربما هناك من يأخذ من أبيه خمسة وعشرين قرشـاً مصـروفاً، ولكن كيف أحوال جيوب الفقراء من التلاميذ في المـدارس العربية... لابد أن منهم من يدفع قرشا في هذا الزمان إذا ما أكل رغيفاً على رائحة الكباب المشوي، ولكن هذا الحاتي لا بد أن يسمع رنين القرش صفعة على وجهه تصيبه بارتجاج في المخ لعل فكرة يتغير... لا بد أن يتغير فكره مهما كـان الثمن.

وهذا الفقير وزوجته لا يبحثون عن الترف، ولكـن اللقمة عندهم ماذا لو صارت مسألة حياة أو موت؟... لا بـد أنهم سيصابون بالسعار... هم يصابون بالسعار من الجـوع وابني يصاب بالسعار من التخمة والمسألة تصير مسألة قاتل أو مقتول... هذه مملكتي يهددها السعار من الجوع... وهذي

ممالك الجيران يهددها سعار أبنائي وزوجتي وأنا من الشـبع بل من التخمة... والشاطر من يسبق يا سادة. زوجتي تحتفظ ببقايا المائدة الكثيرة لتلقي بها لغية الحمام والـدجاج والـبط والإوز التي تقتنيها... يأكل الدجاج والكلاب والقطط في بيتي مائدة شبة كاملة... ويبيت أطفال جـاري علـى الطـوى، ويضمر جسده هو وزوجته التي لابد كانت جميلة يوماً ما ثم أصابهما الجوع بالهزال. مـاذا لـو رأوا تخمـة زوجتـي وأبنائي... سينهشون لحمنا لابد. لابد أن أساومهم مـن الآن حتى لا تهدد الكلاب والقطط مملكتي. سأعرض الأمر غـداً في اجتماع المملكة...

-٣-

في الصباح عرضت الأمر على ست الملك أولاً:

-دبريني يا ست الملك.

قالت زوجتي:

- التدبير يا معالي الأمير.

وأخذت الأمر بفكاهة... ومرح... وراحـت تهتـز أعطافها من التخمة كلما حركت بنانها بينما سـوس الجـوع ينخر في عظام الجيران، وهي صارت مليكتي وأنا تحولـت

إلى مجرد أمير... وقد أصير مجدر وزير وقد تغضب على فأصبح واحداً من الرعية، وربما من الرعاع والجياع، يومها سأزحف على هذا القصر مع الكلاب والقطط والجياع حتـى استرد عرشـي... مملكتـي وصـولجاني... يـا معشـر السلاطين... احذروا قول الحكيم الذي خلـت رأسـه مـن الحكومة في مثله القائل للسلطان الجائر (جوع كلبك يتبعـك) أما سمعتم بحكاية الطفلة الذئبة في الهند... تاهت من أمها في الغابة فجاعت... تبتنها الذئاب... رضعت لبن الذئبة، عاشت معها في الأدغال... واصطادها البشر عرضـوها بحديقـة حيوانات... لكن سيداتي... سادتي... حذار هناك أطفال في العالم... كثرة... رضعوا لبن ذئاب... فحذار من الإنسـان الجوعان الذئب... حذار... حذار.

-٤-

لم تسمع زوجتي التحذير وناصـرها كـل الأبنـاء السذج، ويوماً آخر أرقني الفكر فسهرت بليلـه... سـهرت بشرفتي أتأمل في ديجور الليـل وقـد أطفـأت المصـباح الكهربي، وفجأة رأيت الإنسان الذئب يتسلق مواسـير ميـاه القصر، راقبته وأنا أتقوقع في كرسي بلاج بالشرفة، إذا فهي

النهاية... هذا ابن الجار الذئب يتسلق سور المملكة، كمنـت له... أمسكته في إشفاق حين دلف إلى الداخل... صرخ من الرعب. قلت له: ماذا جئت لتفعله بالقصر؟ قال:(جئت آكل لحماً تعودت على أكل رغيف على رائحـة شـواء اللحـم الصادر من بيتكم فأتيت لأتذوق طعمه). هممت بأن أصـرفه وقد أعطيته قطعة لحم، لكن هذي ست الملك يقظانـة تـأتي نحوي، وتصر على تسليم الطفل الذئب إلى الشـرطة. قلـت لها. يا ست الملك... كفى تعذيباً يا سيدة القصر، كي نسـلم شر الإنسان الذئب لا بد أن نطعمه... هذه صدقة وللفقير حق في مال الغني... لقد كنت فقيراً يوما ما قالت: (نحن نـدفع الضرائب) قلت: (لكننا لا نؤتي الزكاة فحق علينـا غضـب ا ... وأنت لا تصومين لا تحتملين الجوع... فزيدي عليها كفارة... صومي تصحي... وليصم الأبناء كـي يصـحوا، فلنسلمه لذويه حتى نسلم أذاه... لكن ست الملـك رفضـت ورفضت أنا هذا منها ناديت على أصل الإنسان الذئب وسألته عن الحكاية، قال الرجل: (كان الطفل صـغيراً يرضـع... طفل يرضع من أم جوعى كفت عن در اللبن الرباني... ماذا يفعل عض الثدي فرضع الدم فتحول إلى طفل ذئب، همست

لزوجتي ست الملك: (نحن قطعنا ثدي الأم فجاع الطفل وجاء اليوم ليثأر) أعطيت الطفل الجائع قطعة لحم أخرى ودسست جنيهاً في يد أصل الإنسان فتهلل وجهه... راح يكبـر: يـا ا ... يا ا ، وهم بالنزول وابنه سريعاً من سلم الخدم حسب إشارة ست الملك الغاضبة بسبب الحسنة، لكنني أومأت له أن ينتظر، أعطيته بعض ثيابي، وسمحت له أن يخرج من بـاب القصر، فتعثر وابنه في خطوهما ثم انصرفا، وتدخل أبنـاء التخمة في صف أمهم التي صمتت لحظة ثم انطلقت تصرخ في حزم:

(إن لم تبلغ عما حدث فسوف أتخذ أنا الإجـراءات، هذا تفريط في النعمة) قلت لها: (بل هذي زكـاة النعمـة... جودي يا ست الملك حتى تظل البركة بالقصر) لكن امرأتـي أبلغت الشرطة، وأمام الشرطة أنكرت أنا أن الحادث حـادث سطو... برأت الجيران الجوعى.

وتعددت المشاحنات طويلاً بيني وبين السيدة الحمقاء الرعناء ست الملك، وظللت أساعد كل الفقراء، وأمرت بتقليل كمية الطعام على المائدة تدريجيا، وأمرت بتـأخير موعـد

الطعام يوماً بعد يوم حتى يشعر أبناء المملكة بـألم الجـوع فيحسوا بالفقراء وأمرت بالصوم.

رفعت زوجتي ست الملك دعـوى حجـر أملاكـي بدعوى أني سفيه أسـيء التصـرف، بأبنائهـا المتخمـين الأغبياء.. في يوم الجلسة قال القاضي:

-ما قولك يا سيدي في هذه الدعوى؟

قلت له:

-يا سيدي القاضي... هذا زمن التخمة والجوع.

هذا زمن لا يعرف فيه جوعان من جوعـه ومتـى جاع.

(رؤوس الحيوانات على جثث الناس.

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات.

فتحسس رأسك

فتحسس رأسك)

كي تعرف بدءا إن كان بمقدورك حكماً فـي هـذي الدعوى أم لا.

نظر القاضي إلى بـذهول وقـرر عرضـي علـى أخصائي في الأمراض العقلية سحبني الحارث وأنا أصـرخ وأحاول الهرب:

-إني عاقل... إني عاقل... لـن ألـبس القمـيص الأصفر.

وتمكنت من الهرب. جريت وأنا أصرخ في النـاس وأقول: (سأهرب من غابتكم إلى الغابـة الحقيقيـة وهنـاك سأتزوج ذئبة... أرضع أبنائي لبن الذئبة، وسأزحف يوماً ما مع الذئاب والكلاب والجوعى من الحيوانات والبشر على هذا القصر كي أسترد مملكتي... عرشي وصولجاني).

البحر.... والقرار

انتهت الحرب بالهزيمة. والناس بين مكذب ومصدق بين مستسلم ومحتج معترض، وترى البسـمة علـى وجـوه الناس تضمحل والأمل ينقرض، وتخرج المسيرات مطالبـة بالرد الفوري على الهزيمة، وآخرون يجلسون على المقاهي يتنفسون الدخان والأحزان ويلوكون العجز، واليأس تعكسـه وجوههم الكظيمة. كل هذا كان يراه الزميلان القديمان العميد يسري والمفكر قدري- اللـذان اسـتقلا إحـدى السـيارات (البيجو) في طريقهما إلى الإسكندرية لقضاء عطلـة نهايـة الأسبوع – ترجمة صادقة للحوار الدائر بينهما، فما يحـدث في الشارع جار على لسانيهما حواراً صاخباً أحياناً وهامسـاً أحياناً أخرى فهما مختلفان بين مؤيد لضربة انتقامية سـريعة وتريث متعقل هادئ ينتظر الفرصة السانحة لنصـر مبـين. فالعميد يسرى بنزعته العسكرية يتوق إلى خوض المعركـة في التو واللحظة، ولكن المفكر قدري صديقه يسـأله (هـل رجالك جاهزون للمعركة). ويرد عليه العميد يسـري قـائلاً (رجالي دائماً جاهزون) ويكرر المفكر قدري أقصد (هل هم

مجهزون بالعتاد اللازم وميسرة لهم وسائل الإعداد بالذخيرة والعتاد دائماً؟)

سكت يسري لحظة وقال: (هذا شـيء لا أظنـه... ولكن لدينا ما يكفي لمعركة قصيرة خاطفة ترد لنا اعتبارنـا وتحفظ ماء الوجه، فالناس في الشارع وعلى المقاهي وفـي الأزقة وفي القطارات والباصات لا ترحم الجنود العابرين من لسعات النكات التي تفوق في وطأتها لسـع السـياط وأنـت تعرف شعبنا صاحب معين لا ينضب من النكات العميقة في مغزاها اللاذعة في فحواها).

وقاطعه قدري قائلاً: (وهل نتخذ قرارنا تحت لسـع السياط ولاذع النكات؟... هل من الصواب أن ندفع بجنودهم، أبنائنا إلى معركة لا نعرف إلى متـى تسـتمر ولا نضـمن الإعداد والإمداد لها بشكل كاف؟)

رد يسري قائلاً: (هي فرقعة... تثبت الوجود وتـرد الهيبة... وتثلج صدور العامة) وأردف قدري في هدوء (إنك بذلك تدفع بجنودك إلى الدرك وهم غير مجهزين

هي فرقعه تثبت الوجود وترد الهزيمة

إلا من (هع) التي كان يصيح بها جنود الحرس الليلي في شوارع وحارات قرانا في الأربعينات (يرهبون اللصوص وفي نفس الوقت يهدونهم إلى أماكن وقوفهم بالدرك عزلاً إلا من هراوة وحنجرة تصيح(هع... مين هناك) فإما أن يخـاف اللصوص ويهربوا وإما أن يتبجحوا إذا ما أدركـوا حقيقـة الموقف ويهجموا على خفير الدرك الأعزل المسكين.).

بدت الحيرة على وجه العميد يسري وهما يقتربـان بسيارتهما (البيجو) من مشارف مدينة الإسكندرية بينما راح المفكر قدري ينفث دخان سيجارته في تأمل هادئ مستسـلم للنسمات المنعشة الآتية من مدخل المدينة الساحلية عـروس الشاطئ ابنة الإسكندر وحاملة اسمه والشاهدة الأولى علـى عبقرية العسكرية الفذة وفي جوارها أبو قير التـي شـهدت المعركة البحرية الشهيرة فهل يجود البحر بجواب من معارك الماضي على أسئلة الحاضر التـي لا يـؤمن المسـتقبل إلا بجواب لها.

والتفت يسري إلى قدري وقال: (رغـم أن السـيارة خاصة وليست سيارة رسمية تحمل بيرقا أو رقماً مميـزاً إلا

أن أصحاب السيارة التي تسير إلى جوارنا قد تعرفوا على وجوهنا ولسعتنا سياطهم) ضحك قدري وقال: (نعم يسخرون من توجهنا إلى المصيف... ويقولون إننا قد اصطفنا مبكراً تحت الكوبري).

قال يسري: (نكاتهم لاذعة فعلاً كالسياط... ولكن علينا بالصبر كما قلت... ولكن... إلى متى... ا أعلم) قاطع قدري صديقه القديم يسري قائلاً: (حاول أن تنسى مؤقتا... ولنشغل أنفسنا بموضوع آخر... لقد جئنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع... وهي مساء الخميس والجمعة فقط فهل نضيعها في إعمال ذهننا وقدح زناد فكرنا... دعنا نقضيها على نحو يذكرنا بأيام الصبا والتلمذة... ماذا تقترح لقضاء ما تبقى من اليوم؟).

قال يسري: (ما دمت قد اقترحت أن نقضيه على نحو يذكرنا بالماضي أيام الصبا والتلمذة... فإنني أقترح أن نأخذ حماماً بارداً في الاستراحة ثم نستريح من السفر وفي المساء نذهب إلى السيرك فهو المكان الوحيد الذي يذكرنا بالشقاوة والتهريج) ضحك قدري وقال: (وا فكرة تنسينا ما نحن فيه من إعمال الفكر... ولكن برنامج الغد الجمعة من

حقي أن أقترحه أنا، فبرنامج الغد، لا أجد له شيئاً سوى البحر بوشوشات أصدافه التي قد تنبئ بالمستقبل وصخب موجاته التي قد تقضي عليه).

ضحك يسري وقال: (فال ا ولا فالك يا شيخ) واقتربت السيارة التي تقلهما من الاستراحة الهادئة التي تشرف على البحر فانعطف يسري الذي يجلس إلى عجلة القيادة يساراً وهتف محدثاً صديقه وهو يطلق تنهيدة قصيرة بينما هو يصف السيارة إلى جانب الاستراحة (ها نحن قد وصلنا) فنزل قدري بينما تأخر يسري لحظة عنه أفرغ خلالها ماسورة العادم وجذب فرامل اليد حتى لا تتقلقل السيارة من مكانها ثم نزل وأقفل السيارة بينما تأفف قدري من رائحة العادم وقال (يا لها من رائحة كريهة).

ضحك الاثنان ملء شدقيهما وراحا يخلعان ملابسهما وهما في الطريق إلى مدخل الاستراحة كي يغتسلا من غبار وغناء السفر ورائحة العرق والعادم الكريهة.

استيقظ الاثنان بعد أن ناما ملء جفونهما ساعتين وقاما فاغتسلا تحت الرشاش ثم تناولا وجبة خفيفة انطلقا بعدها بسيارتهما في اتجاه كامب شيزار حيث السيرك حتى

بدأت لعبة الأكروبات وتعلقت اللاعبة (دينا) ممسكة بأسنانها قطعه الكاوتشوك الصغيرة المحيطة بحلقة صغيرة تدور حول مسمار قلاووظ صغيرة متدل من سقف الخيمة وهي تـدور بجسمها الرشيق وسط الحلبة وعيون الحاضرين معلقة بهـا وأكفهم تلتهب بالتصفيق الحاد بينما قال أحد الأزواج لزوجته البدينة بصوت خفيض (هذه هي الرشاقة) فـردت الزوجـة بانفعال باسمه محتجة مبررة بينما أولادها من حولها منشغلين مشدوهين (هي لم تحبل بعد ولم تلد خمس مرات... أنا حين كنت في سنها...).

لم يستطع الصديقان أن يمنعا نفسيهما من الابتسـام بينما سارع زوج المرأة يسد فمها قائلاً (طيب بس بـس... آسف يا ستي... هل كان في أيامك مثلك... وهل هناك مثلك الآن) دفعت المرأة بيده منحية إياها جانبـاً وقالـت (تسـخر مني).

قال الرجل ناهضاً: (لا أبدا... كفى فضائح... هيا بنا نعود إلى البيت... هيا يا أولاد) صاحت المرأة. (هكذا أنـت إما أن تعكر صفونا وصفو الأولاد... أو تخرسنا جميعـاً... كفى استبداداً ودع الأولاد يمتعون...).

قال الرجل: (إذًا أجلس على ألا يعلو صوتك علـى صوتي).

قالت المرأة ساخرة من زوجها ومبرطمة: (لا صوت يعلو على صوت المعركة) ضحك المحيطون بهمـا وكـذلك هما ملء الأشداق ثم استأنفوا مشاهدة الألعاب والنمر المختلفة وجاء دور المهرج بوجهه المضـحك الملـون بالمسـاحيق المختلفة في ألوانها وحاول تقليد بعد الألعاب بطريقة فاشـلة جبانة متراجعة والناس تضحك منه وهو يحـاول تـارة أن يكون لاعب (جمباز) وتارة أخرى يحاول أن يكون مروض وحوش فيحضر دمى وحوش... نمور وأسود ويضعها حول الدائرة ويلهب ظهورها بالسياط كي تدور حول الحلبة ولكنها لا تتمثل لأمره فيتوجه إلى مفتاح في الحائط ويضغط علـى فإذا الوحوش محرك كهربي ويفرقع المهرج بالسـوط فـي الهواء والوحوش تدور ثم يضغط على الزرار ويصيح قـف فتمتثل الأسود والنمور الدمى لأمر المهرج ويصفق النـاس والأطفال ويكركرون بالضحك، وبدأ المهـرج فـي الغنـاء بصوته المنكر فتعرف الصديقان فيه على صوت يشبه صوت زميل فاشل في الدراسة الثانوية كان يغنـي نفـس الأغنيـة

القديمة الجميلة لصالح عبد الحي (ليه... يا بنفسج) ويسـألا أحد الجالسين إلى جوارهما (من المهرج؟) فيقـول (اسـمه عوكل... اسم شهرة طبعا) ويضحك ثم يتذكران أن زميـل الدراسة القديمة (عاصم الجوجري) كان يطلق عليه هذا الاسم بين زملاء الدراسة لأنه كان دائم الهزل ... منصرف عـن الجد والدراسة وقررا أن يلقيانه بعد انتهاء العـرض أو فـي الاستراحة التي تلي فقرته الترفيهية... وبدأ المهرج في إلقاء النكات وتبادلها مع الجمهور وكذلك ألقى عليهم فـوازير... وبادلوه النكات والأحابيل والقفشات والفوازير حتى أوجعـت العميد يسري أحد الفوازير التي ألقاها واحد مـن الجمهـور على المهرج وهي (يحطوه على الرمل يجري) فـرد عليـه المهرج بتعقل مرح (الثعبان الذي ينفث سمومه مثلك) فضحك الجميع وانتهت الفقرة فهما بالتوجه إلى حجرة المهرج ولمحاه من بعيد يغسل وجهه من المساحيق وألقيا عليه التحية (مساء

الخير... يا صديقنا العزيز) فرد وهو مستمر في غسل وجهه ومحاولا أن يتعرف عليها من خلال المرآة المواجهة له لكنه لم ير في وجهيها ملامح الماضي. فهما بتقديم نفسيهما في تواضع حجم وحب أخوي... فتعرف عليهما... وأسقط في يده كيف يتصرف... احتار بين أن يقبلهما بحكم العشرة القديمة... أو يلزم الحدود التي تمليها أوضاع كل منهم ومراكزهم... فتسمر في مكانه وتلجم لسانه لحظة ثم تلعثم بالكلام)... اتفضلوا... يا يا... يا...) فسارعا هما إلى نجدته والتخفيف عنه متضاحكين: (دول كلمتين اتنين... فاكرهم ولا ناسيهم يسري... وقدري).

وضحكوا جميعاً... وبسرعة جاء عامل البوفيه وأحضر علبتي عصير منجة مصرية... وعادوا يتجاذبون أطراف الحديث... وكان يعرف عمل كلاهما فقال: (ا معكما في هذه الظروف الصعبة عملكما مضن يحتاج إلى التفكير الكثير... والعمل الأكثر بل والتعرض للموت).

فأجابا (وعملك أيضاً... رغم طرافته لا يخلو من مشقة) فقال: (نعم وا ... الناس تريد نكتة جديدة كل يوم... وحركة مضحكة تختلف كل يوم عن سابقة... مع تقدم السن

ومشاكل الحياة والأسرة نضب معين النكات... كانت قريحتي فيما مضى تجود كل لحظه بنكته وكانت حركاتي وسكناني كلها مضحكه أما اليوم فصرت أتسول النكته من المقاهي بالنهار لألقيها على الناس بالليل وتيبست عضلاتي فلم يعد في حركاتي ما يبعث على الضحك لا الحركات التي تنم عن تيبس العضلات، وصوتي وهو المشروخ من الدخان صار أشبه بالنهيق الذي يبعث على الضحك... ولكن الحمد ... كل ميسر لما خلق له... أنتما تجمعان السلاح وكتب الفكر من كل أنحاء العالم وأنا أجمع النكات من المقاهي... كلنا يجد في معترك الحياة... تحاولون إرضاء الناس وكذلك أنا أحاول إرضاءهم... هدفنا واحد... والطرق مختلفة ووعرة... وشائكة ومضنية ومؤلمة ومضحكة ومبكية... هي الحياة... لقد حاولت بعد فشلي في الدراسة أن أكون أشياء كثيرة في وقت واحد فلم أستطع إلا أن أكون مهرجاً في كل شيء حتى في بيتي مهرج ولكن محترم من أولادي وأم أولادي... كما قلت نقلا عن الرسول (صلى ا عليه وسلم) (كل ميسر لما خلق له).

أمنا على كلامه ودعواه إلى مائدتهما على العشـاء بعد نهاية عرض السيرك في هذه الليلة وأعطياه رقم السيارة التي ستقلهما ومكانها في الموقف المجاور للسيرك ثم اشتأذنا وانصرفا لمشاهدة بقية العرض.

جاءت فقرة السحر وأطلق الساحر الحمائم من أكمام سترته، ووضع بيضة في علبة أقلها وبعد قليل فتح العلبة فإذا البيضة ديك بين طرفة عين وانتباهتها... ثم وضع امرأة في صندوق أقفله وأحكم إغلاقه وراح ينفذ السهام والسكاكين في شتى أجزاء الصندوق ثم يعيد استخراجها ويفتح فإذا المـرأة الخارقة لم تصب بمكروه بل هي فـي أوج جمالهـا تـوزع البسمات والدهشة والانبهار على وجوه الناس المشـاهدين... فتعجب الصديقان من أمر الناس وقررا ألا يبحثا بعد ذلك عن سبب لتعجل الناس... ومطالبة المسئولين بالحلول السـريعة بل والفورية... وبررا بذلك لجـوء النـاس إلـى السـحر والشعوذة حيث يكبلهم العجز وقلة الحيلة وقـال قـدري (إن الناس يلجأون إلى الشعوذة والسحر عند العجز وقلة الحيلـة ولكننا لن نستجيب لهم لأن الحل عندنا... ولكن لـيس مـن الضروري أن يكون فورياً).

قال يسري: (أحيانا يقتضي واجـب النجـدة الحـل الفوري).

فرد عليه قدري: (هناك قطاع النجدة... والإسـعاف ولها وله المهام التي يجب ألا تنشغل بها بقية القطاعات).

وانتهت فقرة السحر وجاءت فقرة الأسود والنمـور وعبور حلقات النار والمدرب يفرقع بالسـوط فـي الهـواء والأسود والنمور تحيط به من كل جانب وركـز الصـديقان عيونهما والأسود والنمور تدور وتعبر من خـلال حلقـات النيران المشتعلة بسرعة... بسرعة... بينما هناك نمر شرس يحاول التمرد ولكن المدرب يلهبـه بالسـوط فيسـرع فـي الدوران وهو ينظر بجانب عينه للمدرب الذي لا ينتبه لـذلك ويفرقع بالسوط مؤذناً للأسود والنمور بالانصراف في اتجاه الأقفاص... ويتوالى انصرافها جميعاً ويلتفت المدرب بعد أن توجه آخرها و إلى القفص- إلى الناس كي يتقبل تحيـاتهم وتصفيقهم وتشجيعهم. وفجأة يعود آخر النمور، ذلك النمـر الشرس وينقض مهاجماً المدرب من ظهره فيصـرخ وسـط هياج الجمهور الذي وقف مذهولاً من الموقف. وساد الهرج والصراخ بينما سارع أحد الحراس المحيطين بحلبة الأسـود

والنمور بإطلاق النار على النمر الشرس فيهم النمر بالجري إلى قفصه ويهب المسئولون بالسيرك إلى نجـدة زمـيلهم المدرب الذي كان ظهره ينزف دماً من منطقة الرئة اليسرى. وتنقله سيارة الإسعاف إلى المستشفى. وعند هذا الحد يتوقف عرض السيرك في تلك الليلة ويبدأ الناس فـي الانصـراف بينما يسارع أفراد عائلة السيرك إلى استقلال سيارتهم للحاق بزميلهم الذي نهش النمر الغادر لحمه للاطمئنان عليه. وعند موقف السيارات وجد الصـديقان صـديقهما المهـرج فـي انتظارهما عند سيارتهما وهو حزين كاسف البال وبادرهمـا قائلاً: (آسف يا سادة... لن أستطيع الوفاء بـدعوتكما إيـاي للعشاء... فإن ما حدث سيفقدني الشهية لعدة أيـام... مـرة أخرى آسف يا جماعة. حقاً أنا مهرج ولكن لي قلبـاً حنونـاً أبيض كالماس).

وكان يسيراً أن يتفهم الصديقان موقف صديقهم القديم المهرج (عوكل) أو (عاصم الجـوجري) فاصـطحباه فـي سيارتهما لتوصيله إلى المستشفى، وفي السيارة قال المهرج بلهجة العارف الخبير (كان يجب ألا يدير ظهـره للأسـود والنمور ويسرع بالتوجه إلى الجماهير لتقبل تحيتها قبـل أن

تدخل جميع الأسود والنمور أقفاصـها فلـيس أخطـر مـن الحيوانات التي تعيش في الأسر... خاصة النمور).

أمن الصديقان على كلامه وتمنيا لزميله الشفاء وتمنيا له أيضا التوفيق في حياته كلها وودعاه عند باب المستشـفي وقالا له: (إن شاء ا ... لنا لقاء (قريب) ونـزل (عوكـل) محييا وانصرفا هما بسيارتهما إلى الاستراحة وقـد سـيطر عليهما شعور بأن الحياة والموت صنوان في لعبة واحـدة... وتذكرا أن البرنامج كان حافلاً بالألعاب ولكنه ألغي بسبب ما حدث. وضاعت عليهما مشاهدة أهم ألعابه (لعبة المـوت) أو (الترابيز) التي يلعبها اللاعبون أحياناً بدون شبكة الأمـان... البعض يركن إلى الأمان والبراعة والبعض يحب الخطـر والمغامرة كل له أسلوبه ومنهجه وكل يـذهب فـي الحيـاة مذهبه.

ووصل الصديقان إلى الاستراحة فخلعا ملابسـهما وارتدى كل جلبابه وجلسا إلى طاولة العشاء فـي صـمت يمضغان اللقيمات ويجتران الأفكـار ويتبـادلان النظـرات المجهدة ثم نهضا فغسلا أيديهما ووجهيهمـا واتجهـا إلـى سريرهما وقد غلف الصمت كل شيء مع هداة الليل. وما من

شيء في ذهنهما واضح أكثر من هجمة النمر الشرس وغدره بالمدرب... وغرور المدرب الذي أودىبه إلـى منعطـف خطر.

استيقظا في الصباح الباكر واستقلا سيارتهما إلـى الشاطئ وسارع يسرى بإلقاء نفسه في الماء فالسـباحة فـي الصباح الباكر احدي عادته القديمة بينما راح قدري يجهـز سنارته للصيد وهي رياضة رغم اقترانها بكبر السن إلا أنها هواية قديمة له.

كانت الساعة السابعة صباحاً وكان الناس يتوافـدون على الشاطئ تباعا بينما راحت البنات من فتيات العـائلات المحافظة تنسحب من الماء وتستقبلهن العاملات العاملات في خدمتهن (بالبرنس) عند أول الشاطئ بينما كانت بعض الأسر تتناول الإفطار والشاي على الشاطئ والأطفـال متحمسـون للنزول قبل إكمال إفطارهم ولكن الأهالي كانوا حاسمين فـي مسألة إتمام أطفالهم لوجبة الإفطار ويتوسلون إلى ذلك بشتى الوسائل بعد ذلك يسمحون لأطفالهم بالنزول مصطحبين معهم عواماتهم... أطـواق النجـاة الصـغيرة والكبيـرة حسـب أعمارهم.

كان المفكر قدري يتابع الصيد كلما تغمـز السـنارة وفي نفس الوقت كان يرقب الموقف العام على الشاطئ وفي البحر بنظارته المعظمة من حين لآخر، تلك كانت عادته منذ الصغر. الصيد والتأمل. كان الرجال مـن حولـه معظمهـم يطالع صحف الصباح بينما النسوة لاهيات عن كل شيء إما يتجاذبن أطراف الحديث مع بعضهن البعض فالتعارف جزء من طقوس الشاطئ يبدأ بلعب الأطفال مع بعضهم الـبعض وينتهي بتعارف النسوة وربما يتعارف الرجال أيضـاً مـع بعضهم البعض... وكم من زيجات بـدأت بتعـارف علـى الشاطئ الذي يهرع الناس إليه هربا من قيظ الصيف وانتهت بنشدان الدفء والحب في أوائل الخريف. أما العجائز فكـن مشتغلات بأعمال الكنفاه والأيتامين والجـبلان والكوروشـيه واجترار الذكريات، أما اختلاس النظرات فكان شأن الصبية والفتيات المراهقات تدفعهم إلى ذلك عـواطفهم المشـبوبة وأنفسهم التواقة للمغامرة وطبيعة الشاطئ الساحرة.

كان قدري أحياناً يتجاذب أطراف الحديث مع الباعة الجائلين على الشاطئ استجابة لرغبة خفية في نفوس الباعـة تواقة للحديث عن ماض قريب أو بعيد وأمجاد لهم مضـت

لايدري إن كانت حقيقة أم وهمـا.,. وكـان وجهـه يبـدي التصديق دائما مما كان يريحهم فهو يري أن ما كـان منهـا وهما لم يكن إلاقناعا يدارون به عارا، فهذا الصبي بـائع أم الخلول له حكاية عن تعدد ذهابه إلى البحر مع أبيـه فيمـا مضى للصيد ومعركة ذات يوم مع أمواج البحر المتلاطمـة فقد خلالها أباه ليس لأن أباه لم يقدر على مصارعة المـوج وليس لأنه لم يستطيع إنقاذ أباه، ولكن لأن جنية البحر كانت تعشق أباه وتتدله في حبه فتآمرت على أبيه وتواطـأت مـع الموج فحطم مركبه وجذبته الجنية إلى الأعماق، ومن يومها هجر البحر والصيد بناء على رغبة أمـه التـي تخشـي أن تتكرر المأساة ولزم الشاطئ يبيع أم الخلول ويرقـب عـودة أبيه.

وهذا بائع (غزل البنات) الذي يحكي عن نفسه أنـه كان سباحاً ممتازاً في صباه يهوى مغازلـة الفتيـات بـين الأمواج ويلاحقهن فاستدرجته إحداهن وكانت سباحة ماهرة- إلى ما وراء الصخرة بعيداً وسـط البحـر حيـث المـوج المتلاطم وتركته يصارع الموج وعادت يصـاحبها شـعور بالظفر والانتصار، ولم ينقذه إلا الـريس (حمـدان) أحـد

البحارة في ذلك الوقت ومن يومها لزم الشاطئ بنـاء علـى إصرار أبيه على ذلك ليس إلا وصارت حرفته فيما بعد بيع (غزل البنات) على الشاطئ، وختم الفتى حكايته قائلاً: (بس كانت بنت يابك – تأخذك البحر وترجعك عطشان) ضـحك قدري وقال: (تأخذك أنت ... مالى أنا).

وحكى آخر حكاية عن ابن لأحد البحارة أشرف على الغرق ثم أنقذ ورفضت أمه الاستجابة لرغبة الولـد وهـي العودة إلى نزول البحر في التو واللحظة كنصيحة أبيه لأن كان وحيدها وخوفته فألزمه الخوف الشاطئ إلى يومنا هـذا وفقد مستقبله الذي كان يرجوه هو وأبـوه وهـو أن يكـون (بحاراً) يوماً ما وانتهي به الأمـر إلـى أن يكـون (بـائع مرطبات) على الشاطئ ومات أبوه بحسرته كما يقول الناس ونسي الناس اسم هذا الصبي الأصلي وصاروا ينادونه (حيلة أمه).

وفجأة دوت صرخة امرأة (ابني ... ابني... ابنـي غير موجود على الشاطئ) وهب زوجها قائلاً (كيف... لقـد رأيته منذ لحظة عند سلم الزحلقة ومعه العوامة (الطـوق)؟

سأل رب أسرة انتصب واقفاً على مقربة منه (مالون المايوه الذي يرتديه؟) سارعت أمه قائلة:

-أزرق

عاد الرجل يسأل: ما لون العوامة؟

قالت أم الصبي:

-الطوق أبيض عليه رسوم مشجرة.

سارع بعض (السريحة) بالقول:

-ربما عاد يتجول على الشاطئ.

فصاح أحد الشباب الذين يعرفون البائع ساخراً:

-لماذا... هل يبيع أم الخلـول أم غـزل البنـات أم مرطبات؟...

وانسحب البائع في أسى وخجل يداري وجهه، وهـم بعض الشباب المليء بالفتوة بالنزول إلى الماء والاسـتباق للبحث عن الطفل، وأسرع الولد بإبلاغ البحارة ولكنه لم يجد البحار القريب يقف على (برجه) بل كان مشتغلاً فـي بيـع مرطبات من ثلاجة وضعها بجانب البرج وتـأجير كراسـي البلاج والشماسي، وعندما اقتـرب منـه الأب مبلغـاً إيـاه بالحادث رد البحار في تأنيب ولا مبالاة (لماذا لا ينتبه الناس

لعيالهم وأطفالهم؟) فانصرف الأب مسرعا وعاد إلى مكـان الحادث حيث كان المفكر قدري قد ألقـى نظـرة بنظارتـه المعظمة ومكان وجود الطفل للعميد يسري والشباب الآخرين واندفعوا جميعاً يتسابقون نحو الهدف ومعهم بعض البحـارة. وسارع بعض الباعة بالتظاهر بخلع ملابسهم والنزول ولكنهم سرعان ما كانوا يهربون من جانب آخر من الشـاطئ بعـد تبليل أجسادهم بالمياه.

كان معظم الذين نزلوا إلى البحـر شـباب ملـيء بالفتوة يتمتع بعضهم بالخبرة والدراية بفن السباق في البحـر ولكن يسري والبحارة كانوا أكثر النـاس درايـة بأصـول السباحة والضربات المنتظمة لكن يسرى تميز عليهم بأنـه كان له خطة وتكتيك للوصول السريع إلى حيث الطفل. بدأ العميد يسر وكأنه غير مهتم بأن يكون أول من يصل إلـى الطفل فكان في بداية السباق يهتم بانتظام أنفاسه وضـرباته أكثر مما يهتم بمدى سرعته فكان ترتيبه الثالث بين الباحثين ثم في النهاية كثف جهده حتى كان أول من وصـل فجـذب الطفل من الطوق وراح يدفعه بيده عائدا إلى الشاطئ ومـن خلفه بقية الشاب الذين دفعهم واجب النجدة إلـى الاسـتباق

لنجدة الطفل رغم الخطر وكان البحارة يؤدون واجبهم، ولـم يكن خافياً أن البحارة كانوا ينظرون إلى العميد يسري الذي كانوا يجهلون هويته في حنق وغيرة وحسد ظناً منهم أنه لـه دافع آخر غير واجب النجدة، وقالوا ليسري الذي لم يسـتطع أن يخفي إحساسه بالظفر وابتسامته الساخرة التي علت شفتيه عندما قرأ أفكار البحارة الذين سارعوا بترجمة أفكارهم وهم يقربون من الشاطئ قائلين: (هذا أكل عيشنا ياجدع... ولكن الشباب له حكمه... ومع ذلك نحن شركاء في الحلاوة التـي ستكون إن شاء ا كبيرة... أهل الولد يبدون متريشين).

ابتسم يسري وهو يخرج إلى الشاطئ فـي صـمت ويسلم الطفل لأهله بينما سارعت أمه لاحتضانه قائلة: (ابني: حبيبي... ضنايا).

تجمع الناس حول الأسرة مباركين بعودة الطفل بينما اندفع البحارة في أثر يسري وقال أحدهم:

-الجدع ده هو اللي وصل له قبلنا لكن احنا كلنا كنا معاه... نعم... كلنا شركاء في (الحلاوة).

ابتسم الأب وسارع بإخراج حافظ نقوده ودفـع فـي سعادة بعملة ورقية من فئه العشرين جنيهاً ليسري الذي لـم يكن يدري هويته فابتسم يسري للأدب مقدماً نفسه:.

-يسري من القوات المسلحة.

فعانقه الأب واعتذر في خجل قائلاً:

-المايوه جعل التمييز بين النـاص صـعباً. آسـف أهلاً... تفضل بالجلوس ولنشرب شيئاً بارداً معاً. قاطع أحد البحارة الأب متظاهراً بالاستئذان وبأنه متعجل:

-هل تلازم أية خدمة يا بك؟

تنبه الأب لمغزى كلامه. فناول كل بحار جنيهين أو ثلاثة إذ كان في شبه ارتباك وجلـس البحـارة بـين راض ورافض، بينما تدافع بعض الباعة الجائلين مطالبين بحـلاوة لهم على جهد لم يبذلوه فقال أحدهم:

-أنا نزلت يا بك.

وقال آخرون: (وانا ... وانا... وأنا)

فازداد ارتباك الأب، ولكن أحد البحارة قال:

-هم كذابين زفة يابك... هذا يبع أم الخلول... وهذا بائع غزل البنات... وهذا بائع مرطبا... كلهم لا يجـرؤون على نزول البحر... البحر له رجاله يا بك.

اتجه الأب لبائع المرطبات وطلـب منـه مرطبـات للضيوف وصرف بقية الباعة بعد أن أعطى كلامنهم بضـع عملات ورقية صغيرة.

اقترح أحد البحارة على الأب أن ينزل ابنـه إلـى الماء في التو واللحظة فاعترضت الأم وقالت:

-أبداً لن ينزل البحر ثانية.

فقال البحار:

-لا يا ست هانم... لا تقضي على مستقبل الواد.

وصاح آخر محاولاً أن يفهمها:

-هل تريدينه أن يصير بائع (أم الخلـول) أم بـائع (غزل بنات) أم بائع مرطبات مثل (حيلة أمه).

ونظرت الأم في استنكار وعدم فهم إلى البحـارة، وامتعضت لفكرة أن ينتهي الأمر بابنها أن يكـون كهـؤلاء الفتيان الذين يبيعون ام الخلول وغزل البنات والمرطبـات. وقالت وعلي وجهها ابتسامه بلهاء:

-لا إن شاء ا سيكون مهندساً أو دكتوراً.

فهتف أحد البحارة محذراً وناصحاً:-

-وا لو لم تنزليه إلى البحر في التو واللحظة لن يسـتطيع أن يرمي أساساًحتى لو حصل على بكالوريوس الهندسة ولن يجرؤ على الإمساك بمشرط لإجراء جراحةحتى لو تخـرج بامتياز من كلية الطب.

سألت الأم فيها يشبه الاعتراض:

-كيف- قال ا ولا فالك – وما دخل البحر بالطـب والهندسة؟

قال الرجل:

-يا ست هانم البحر أستاذ (الأسـاتذه) البحـر هـو الأساس. المدرسة الابتدائي... من ينجح فيه يروح إعـدادي وثانوي وجامعه... اما من يفشل فحتي لو واصل تعليمـه... سيتعثر في التعليم ولو واصل وختمه لا ينجح في عملـه... البحر مدرسة كبيرة جداً يا ست هانم ... قل لها يـا بـك... أنت تفهم أحسن مني.

ابتسم الأب وقال للبحارة الذين هموا بالانصراف:

-انا أفهم ما تقصدون... شكرا على كل حال...

وانصرف البحاره وبقي العميد يسري والأستاذ قدري مع الأب وأسرته بعض الوقت ونصحاه بعد أن هدأ الجو من حولهما أن يعمل بكلام البحارة وينزل ابنه إلى المـاء فـي نفس اليوم على أن يرقبه من بعيد.

قال الأب:

-وعدت أمه أن ترقبه وهو يسـبح أمامنـا ولكنهـا انشغلت بالحديث تارة مع الأسرة التي تجلس تحت الشمسـية المجاورة وتارة تطرز رقعة الكانفاه التي في يدها.

هبت الأم مدافعة عن نفسها قائلة.

-وكنت أنت أيضاً مشغولاً بقراءة الصحيفة اليومية، أنت الأب... وأنت المسئول عما حدث.

قال الأب:

-وأنت ألا تتحملين جانبا فيما حدث؟

قال المفكر قدري:

-بدأتما في تحميل مسئولية ما حدث على بعضـكما البعض... تماما كما حدث بعد الحرب (يا يسري) حاولت كل من القيادة السياسية والقيادة السعكرية إلقاء مسئولية ما حدث على الطرف الآخر.

ضحك الأب وقال:

-ومن الرجل ومن المرأة في القيادتين؟.

امتعض العميد يسري للدعابة وقـال واضـعاً حـداً للدعابة السخيفة.

-لم تكن أي من القيادتين العسكرية أو السياسية فـي مصر على مر العصور للمرأة... إن طبيعة الشعب المصري ترفض ذلك.

قالت الأم:

-ولماذا يابك؟ لعلك نسيت ان قيادة مصر آلـت ذات يوم لشجرة الدر.

قال قدري:

-ولكن الخليفة العباسي بعث لأول الأمر في مصر يقول: (إن لم يكن عندكم رجل ليحكم مصر... بعثنا لكم رجلاً)

قالت الزوجة:

-ولكنها حكمت مصر رغم ذلك.

قال قدري:

-حكمت متسترة خلف عز الدين أيبك.

قالت الزوجة:

-المهم أنها حكمت وانتهى الأمر.

رد قدري مداعباً:

-انتهى الأمر يا سيدتي بأن ماتت تحت وطأة الضـرب (بالقباقيب).

فقال الزوجة:-

-كان انتصاراً لأمرأة أخرى هي زوجة عز الدين أيبـك (أم علي).

وجد الأب أن الحوار من جانب زوجته قد اتخـذ طـابع التحدي لضيوفه فقال محولاً دفة الحديث:

-ما رأيك... لو نذوق اليوم (أم علي) من عمـل يـديك فقدري بك وسيادة العميد يسري ضيوفنا اليوم.

اعتذر الصديقان عن قبول الدعوة فـي أدب وهنـآ الأب والأم بسلامة الولد وكررا تذكير الأب بضرورة نزول الابن إلى الماء قبل نهاية اليوم، ثم انصرفا تجهين إلى سيارتهما وركباها عائدين إلى الاستراحة حيث أخذ بقيه أشيائهما منها ثم عاودا ركوب السيارة متجهين إلى القاهرة.

وفي الطريق خطر للعميد يسري أنه من الضروري أنـه يخوض الجيش معركة ولو قصيرة سريعة محدودة في أقرب

وقت ودفع عن ذهنه بشدة فكرة أن يتحول الرجال كلهم الـى باعة سريحة (يبيعون أم الخلول وغزل البنات والمرطبات) وخطر له أيضاً أن الباعة بهذا الشكل يصـبحون كثـرة... وبذلك سيسري قانون العرض والطلب فإذا كثر المعـروض وقل الطلب سيبيعون رخيصاً.

نحى كل هذه الأفكار جانباً وأسند رأسه الكرسـي وفـتح زجاج السيارة وراح يتابع الأشجار والمحاصيل المزروعـة بطول الطريق وقد عقد العزم على أن يدعو القيادة لقضـاء الخميس والجمعة القادمين في السيرك والبحر بالإسـكندرية، ويروي لهم ما حدث في رحلته هذه وكل ما جال بخاطره من أفكار، وما دار بينه وبين قدري من حوار.

بلديات

مفتتح: **حوار بالإنجليزية في قاعة الدرس**

الاثنين ٢٧ يناير في أحد الأعوام الماضية.

المعيد: الطرق لم تعبر من قبل، وليس ثمة شـيء يسـتحق الثناء، وليس سوى قليل من يستأهلون الحب. يقـول لنـا ورد زورث إن لوسي عاشت مجهولة، ثم يضيف إلى ذلـك أن قلة هم الذين يعرفون متى رحلت... وهكذا نجـد أنفسـنا أمام قصيدة تترك أثراً عاطفياً جياشاً يتحقق جزئياً من خلال استخدام اللغة غير دقيق تماما هل لديكم مزيد من التعليقات؟

نفيسه: حسناً، انني أكاد. أخمن أن القصيده تحكي عن فتـاة جميلة تعني بالفعل الكثير بالنسبة لـورد زورث حتـى وإان تكن فتاةه لا يعدو جمالها أن يكون عاديا.

المعيد: أعتقد أنه بعد كل مـا قلنـاه (يعنـي نفسـه) نتفـق جميعاً على أن هذا الرأي لا جديد فيه... أي لـيس رأياً ثورياً.

نفيسةه: (في لهجة استنكار) ليس ثورياً؟

المعيد: نعم ليس ثوريـاً بمعنـى أن مـا قلتـه لا يختلـف بشكل صارخ عما قلناه (يعني نفسه مرة ثانية) وما

يتفق عليه الجميع، فإنك لا تدحضين الرؤية الراهنـــة للقصيدة ولم تقتلعي مفهومنا لها من جذوره. فأنـت لـم تأت بجديد.

نفيسة: (بحزن واستسلام) أوكيه.

(١)تقرير من الآنسة انسيكلو بيديا اجيببسيانا

الخميس التالى ٣٠ يناير، السيد مدير مكتب الأمن..

حدث في هذا اليوم أن دخل حجرة الدراسة طالب أسمر يدعى الجعفري مع طالبة وجلسا في آخـر مقعـد، وأعلـن الطالب أنه سيفرج (طلبة السيكشـن) علـى السـيد محمـد القرماوي المعيد بالكلية وأضاف أنه سيفرم هذا الفرماوي إذا احتج، وفتح حقيبته الصغيرة وأخرج منها كيساً من القمـاش به كمية من التراب وقلبها فوق منضدة المـدرس قبـل أن يدخل، ثم أخرج الطالب ست قطع من الحصى

وهل تبخل نفيسة بالنفيس عليّ

ثلاث منها رمادية اللون والثلاثة الأخر من لون مغاير، ثـم أعلن أنه سيلاعب السيد محمد الفرماوي (السـيجة) وأنـه سيغلبه إذا قبل أن يلاعبه، واذا رفض سيفرج عليه خلق ا وأنه سيجبره على أن يعطيه هو (وبلادياته)- ولسـت أدري من يقصد – تقدير ممتاز لأنهم على الأقل (عندهم أصـل)- على حد تعبيره- وأضاف أن المعيد اذا لم يفعل ذلك سيكون من الذين لا يعرفون أين صالحهم، وعند هذا الحـد رجتـه الآنسة نفيسة ألا يفعل لأن ذلك في غير صـالحه، وعنـدما أصر على موقفه رجته ألا يجلس إلى جوارها لأنها لا تحب (الشوشرة) وأنها تريد أن تنجح (وتعدي السنة على خير) ثم تحول أوراقها إلى جامعة أخرى تمضي بها سـنة أخـرى وتتخرج، ثم استطردت الآنسة نفيسة قائلة له: (احنا لنا منـه العلم وبس)، ولست أدري ماذا كانت تقد بالضبط وأضـاف الطالب موجهاً كلامه إلى نفيسة: (وهل في سبيل العلم نحن مضطرون أن نتحمل سخافاته) ولست أدري أيضا

ماذا كان يقصد خاصة وأن السيد المعيد لم يحـدث أن تعرض له من قبل بخير أو بشر، وختم كلامه بشتمه بلهجة أعتقد أنها متداولة في بلدته لم أفهمها وأعتقد أنها شتمة بذيئة لأني لم أتعود سماعها: (اصفخص عليه) وذهبت إلى السيد المعيد في مكتبه وأخبرته بما ينتويه الطالب له من شـرحتى يأخذ أهبته ثم عدت أدراجي إلى الفصل لكي أتابع ما عسى أن يكون قد جد فلم أجد الطالب هناك.

وبعد أن بدأت المحاضرة وكان السيد المعيد قـد بـدأ يحاضر عن ورد زورث دخـل الطالـب الجعفـري دون استئذان، واستفسر منه السيد المعيد عما اذا كان مقيداً بهـذا الفصل فأجاب بالإيجاب وأردف أن اسمه الجعفري وأضاف قائلاً: (هل سمعت عن الجعافرة؟ أظنك سـمعت)، ودخـل وجلس في أول الفصل بعيداً عن الطالبـة نفيسـة اسـتجابة لرجائها السالف الذكر على ما أعتقد، وبعد قليل بادر السـيد المعيد بقوله: (بيجولو عليك إنك جـدع وتلعـب بالبيضـة والحجر... تعرف بجه تلاعبني السيجة... النصبة قـدامك أهي).

وبتحكم شديد في أعصـابه قـال لـه السـيد المعيـد بالانجليزيه:

(إنه على استعداد لذاك، ولكن ليس في حجرة الدارسة).

ووضع الطالب يده أمام فمه وتثاءب بافتعال بصـوت عال وتمطى في تظاهر بالكسل الشديد ثم قال وهو يتثـاءب مرة أخرى (ما بلاش المدعوجة المحاضرة دي في نهـارك الأغبر ده... ونتفاهم أحسن) فقال له السيد المعيد متسـائلاً بالإنجليزية (في أي شأن تريد أن نتفاهم) فقـال لـه (أنـت عارف وأنا عارف) وكلما استمرت المناقشـة بينهمـا ازداد الأمر أمامنا نحن الطلبة غموضاً والتباسا... وحتـى الآن لا أفهم طبيعة الضغينة التي يكنها الطالب للسيد المعيد. وحـين تمادى الطالب في شغبه قال له السيد المعيد: (أرجوك أترك الفصل) قال له الطالب: (عبارتك يسبقها تظاهر بالرجـاء، ولهجتك تتضمن معنى الأمـر... هـل أنـت تـأمرني أم ترجوني) فحسم السيد المعيد أمره وقال لـه بعـد أن تفـاقم الأمر وبعد أن استفزه الطالب بشدة: (أنا آمرك) فقـال لـه الطالب في لهجة غاضبة صعيدية متوعدة: (إذا فستخرج قبل أن أخرج) وعند هذا الحد خرجت من قاعة الدرس وجئـت

إلى مكتبكم وأخبرتكم بما قد كانحتى تلـك اللحظـة تاركـة زملاء الدراسة في ذهول، وعندما عدت إلى الفصل خـرج السيد المعيد في حراسة رجل الأمن بينما الطالب الجعفـري يسبه بأقذع الألفاظ، وطلب بعض الطلاب إليـه أن يتـرك حجرة الدراسةحتى يتمكنوا من استكمال المحاضرة، فقـال لهم (لا) وقلت أنا للطالبات: هيا بنا نغادر الفصل إلى حجرة الطالبات حتى نتجنب سماع هذا السباب السـخيف... فقـال الجعفري لفظة بلهجته الصعيدية التي لا أعرفها ولكن أعتقد أنه لون من السباب بلهجته المحليه وختاماً أشهد أن السـيد المعيد قد أبدى صبراً شديداً في مواجهة هذا الجعفري، بـل أذكر أنه سأله: (ما الذي كان يفعل اذا كان في مكانـه إزاء تصرفات وألفاظ طالب مثله).

توقيع

سمسمة

الشهيرة بانسيكلوبيديا اجيبسيانا

السنة الثالثة بالكلية قسم لغة إنجليزية

(٢)شاهد زور وقاضي وبتاع كله

السيد رئيس مكتب الأمن

أتشرف بتقديم هذه الشكوى الرسمية ضـد الطالـب الصعيدي محمد الجعفري في يوم الخميس ٣٠ يناير وقبـل بدء المحاضرة بدقائق قليلة دخل الطالب المشكو في حقه إلى قاعة الدرس وأعلن بسلوكه وبلسانه انه ينتوي إثارة الشـغب على النحو الذي أبلغت به الآنسة انسـيكلوبيديا اجيبسـيانا، وخرج الطالب الجعفري وعاد بعد دخـول السـيد المعيـد بلحظات وبدأ الشغب الوارد في تقرير الآنسـة انسـيكلوبيديا اجيبسيانا من ألفاظ... أوه لا... لا، آنف مـن ذكرهـا، ولا أعرف كيف أقصها وعندما سأله السيد المعيد عن اسمه نطقه عدة مرات بطريقة لم يفهمها أحد والتـزم الاسـتاذ المعيـد الصبر بمقدرة واقتدر كما يقولون (باللغة العربية الفصـحى) الغريبة علي، وأنني لو كنت مكانه (كنت وقعت من طـولي) كما يقولون في الأمثله البلدية التي أسمع بها أحيانـا. طيلـة عمري لم أدخل مكتب تحقيق ولا بوليس ولا مـرور، كـل المشاكل بتاعتي تحل في الوقت المناسب، وأخيراً قال الطالب الجعفري للسيد المعيد كلمة نابية لا يقولها طالـب الأسـتاذ

قال:(ساكتب لك اسمي على السبورة ما دمت غبياً لا تستطيع أن تميز اسمي بلهجتي التي تستنكف فهمها لأنها صعيديه كما تقول) وكتب (الجعفري) ثم قال للسيد المعيد (هـل فهمـت (الجعفري) هل سمعت عن الجعافرة الذين سـيرونك الويـل انتقاماً لكرامتهم). كلام في سرك يا سـيادة المحقـق السـيد المعيد دا أصله فلاح بس انفلت من جذوره زي ما بيقولوا لما أصبح معيد في قسم انجليزي بقه يتلازق فينا وعايز يعمل ابن ذوات مع انه قد تعلم على حساب الاشتراكية.

توقيع

محمد حسام الدين

واسم الدلع (منونة)

بالسنة الثالثة قسم اللغة الإنجليزية

(٣) البروفسير المفتري
السيد رئيس مكتب الأمن

في يوم الخميس ٣٠ يناير جـاءتني الآنسـة انسـيكلوبيديا اجيبسيانا في مكتبي قبل بدء المحاضرة بلحظات وأخبرتنـي بما ينتويه طالب يدعى الجعفري من عبث فـي محاضـرتي الذي هو بالتالى عبث بوقت المدرس المفيد لـه وازميلاتـه وزملائه، وأخبرتني بأن الطالب تفوه بألفاظ نابية يبدو منهـا عدم الاتزان، وقد تأكدت من ذلك بالفعـل حـين توجهـت لاستئناف موضوع الدرس السابق وهو مقدمـه ورد زورث للقصائد القصصية الغنائية، بعد دخولي إلى قاعـة الـدرس بقليل دخل الطالب المذكور دون استئذان، ودون مجرد إيماءة منه لي فيها اعتراف بوجودي كمحاضر، وعلي الفور جلس في أول الفصل بعيداً عن الطالبه نفيسة التي عرفـت أنهـا بلدياته وهو دائم الجلوس إلى جوارها، ولم تمض ثوان بعد استفساري عن اسمه وإجابته لي بطريقة رديئة فيهـا تهديـد ووعيد باعتبار أن اسم بلدته يتضمن معنى الوعيد لما عرف عن هذه البلدة من حب الشغب وسفك الـدماء –حتـى قـال بلهجته الصعيدية (بيجولوا عليك انك حدق وبتلعب بالبيضـة

والحجر)... ثم أشار إلى كمية من التراب ملقاة فوق منضدة المحاضر وبعض الحصى وأضاف: (تعرف بجه تلاعبني... النصبة قدامك أهي) وبتحكم شديد في أعصـابي قلـت لـه بالإنجليزية: (إنني على استعداد لذلك ولكن ليس في حجـرة الدراسة) بعد ذلك وضع الطالب يده أمام فمه وتثاءب بصوت عال وتمطي في تظاهر بالكسل الشديد أو هو كذلك بحكم أنه من أبناء المناطق الحارة وقال وهو يتثـاءب: (مـا بـلاش المدعوجه دي في نهارك الأغبر ده، ونتفاهم أحسن)، فقلت له متسائلاً بالانجليزية: (في أي شيء تريد أن نتفـاهم) فقـال: (أنت عارف وأنا عارف)، والحقيقة أنني لا أعرف ما يقـول فأنى لي أن أعرف... وأنني أرفع لكم الأمر لاتخاذ الـلازم خاصة وأنني متأكد أن تفاصيل كل ما حدث بعد ذلك متضمن في تقرير الآنسة انسيكلوبيديا اجيبسيانا، وأنا مكتف بما فيـه وواثق من موضوعيتها في عرض كافة ما حدث بعـد ذلـك وشكراً.

توقيع

البروفسير فرماوي

(٤) حكاية الجعفري

من الأول عشان الحبايب. بدأت الحكاية من بداية العام الدراسي ولكنها اتخذت طابعاً خاصاً على الأقل من ناحيتي يوم الاثنين ٢٧ يناير، كان السيد المعيد محمد الفرماوي يناقش الطالبه نفيسة ويسفه آراءها كما هي عادته، ولست أدري لماذا ولأنها بلدياتي... كان ذلك يحز في نفسي وخاصة وأنها دأبت على ابتلاع كبريائهاحتى ينتهي العام الدراسي، وتنفذ ما انتوته وهو استكمال دراستها في جامعة أخرى، كما أنها كصعيدية أصيلة لا تحب إثارة شوشرة حولها، وفي سبيل ذلك أعتقد أنها تغاضت عن أشياء كثيرة... لا أعرفها، ولكني أستطيع أن أخمنها... ولكني لن أصرح بها احتراماً لرغبتها هي في الصمت الذي استفز كبريائي أنا ابن عمومتها وبلدياتها... الصعيدي الأصيل الذي لا يقبل الضيم على نفسه أو على الآخرين.

كانت تركب الباص في الدرجة الثانية لا الأولى حتى تتجنب الاحتكاك بذلك البروفيسير المفتري محمد الفرماوي والذي دأب على مطاردتهاحتى في الباص، وكان قد دأب على مغازلتها منذ بداية العام... وعلى مرأى من طلبة

فرقتنا، ولما لم تستجب له دأب على تسفيه آرائها والنيل مـن كبريائها كدارسة عهدنا فيها الذكاء والتفوق، وغالى هو فـي النيل من كبريائها لا الدراسي فقط وإنما الإنساني... رأيتهـا مرة أخيراً في الباص تركب الدرجة الثانية وهو في الدرجـة الأولى و لإحراجها قطع لنفسه تذكرة ولها بالدرجـة الثانيـة حيث تقف، وأشار لها (خلاص يانفيسة) وبكـت هـي فـي صمت، وكنت أسمع بكاءها الصامت لأني أنا بلدياتها وابـن عمومتها... وأعرف كبرياء نسائنا حـين يبكـي الصـمت داخلهن... لأن نشيج صمتهن يخترق صدورهن ويتغلغل في قلبي سكيناً... أنا بلدياتها وابن عمومتها، (والظفر ما يطلعش من اللحم) ماذا يقول لي أخاها حين ترجع البنت في الأجـازة حزينة ذابلة لا تشكو... لعله يظن أنه أصابها العار، ولعلـه يعتقد أني لست في مستوى وصيته... الموت أهون من ذلك، ونحن لا نقبل العار ولا الضيم، وأنا قد وعدتـه أن أرعـى أخته... أختي ووعد الحر دين عليه. ليس كلاماً فحسـب، إن لها كبرياءها ولكنه كبرياء صامت... إنها ثورية على عكس ما تصور الفرماوي المزعوم، ولكنها ليس لديها روح الجدل إنها شقراء صعيدية... ولكنها ليست كما تصور... ساذجة...

وليست كما تصور غبية... بل ثورية... وللكبريـاء ثـورة وصولة وجولة أخوضها الآن نيابة عنها... أنا الجعفري ابن الجعفري... ابن الجعفري... هل تعرفون ذلك يا أهل البندر (يا فهلوية)... والآن تقدمونني إلى محاكمة تأديبيـة يعقبهـا فصلي من الجامعة... محاكمة تأديبية... دونها الموت... أنا الجعفري ابن الجعفري... ابن الجعفري أتفجر آدميـة ولـي روح ثورية وأجنحة تحلق في الفضـاء... وأحـلام تفـوق الأحلام الورد زورثية، ودون ارتياد آفاق لوسي الصـعيدية الموت الزؤام... والموت الزؤام قبل أن أرى هذا المحاضـر ابن الحرام مرة أخرى يقف محاضراً أمام لوسي الصعيدية.

وقفز من النافذة وهو يصرخ.

(٤) لوسي الصعيدية تتفجر ثورية

أنا نفيسة بنت الجعفـري... ابـن الجعفـري ... ابـن الجعفري، كنت قبل هذه اللحظة أتفجر أنوثة وحيويـة أكثـر مني ثورية، وكنت أحلق مع المرحوم الجعفري في الأحـلام الورد زورثية، وكان المدعو الفرماوي يفجر فـي عروقـي الثورة ضده وضد أمثاله بأكثر مما يفجر أنوثتي، ودأب على تسفيه آرائي بعد أن فشل في استقطاب أنوثتي لصالحه ذلـك الانسان الذي لا يصلح محاضـراً، فـي البدايـة بعـد أول محاضرة له في فصلنا اقترب مني أكثر حين ذهبت وبعـض الزملاء والزميلات لاستيضاحه بعض نقاط موضوع الدرس، وسألني بالانجليزية سؤالاً لعله وليد لون بشرتي البيضاء (هل أنت ألمانية؟). قلت له (بل مصرية من الجعافرة فيوميـة... وجذورنا في المنيا ولازالت ممتدة) فامتعض ولكنـه أعـاد سؤاله في دعابة دلال له ما بعد، ودأب على نصـب شـباكه حولي فيما بعد كعادته مع أخريات قبلي لا شأن لي بهن. مرة قال لي (إن انجليزيتك نطقها سليم سليم تماماً كما لو كنت لأم وأب انجليزيين) شكرته وقلت لـه إننـي خريجـة مدرسـة انجليزية ثم عاود دعاباته (ولكن اسمك لا يتفق وجمالـك...

سأختار لك اسماً أناديك به... نانا بدلاً من نفيسة). قلت لـه: له: (شكراً... أنني أحب اسمي وأعتز بـه... وأرفـض أن يناديني أحد إلا به فأنا نفيسة)... كنت أنا وهو نقف بمفردنـا فقال بسخافة مستمرئاً الدعابة: (وهل تبخل نفيسـو بـالنفيس علي) قلت له بحدة: (إذا كان ما تقصد... فأنا بخيلة جداً جداً) كنا قد وصلنا إلى داخل مكتبه ولم يكن معه أحـد، وكـان عندي سؤال علمي هممت بتوجيهه إليـه... ولكنـه همـس بالقول: (إذا فأنت غالية...حتى علي... أنت نفيسة... ولكـن هلي تبخلين علي حتى في الحلال) قلت له في أدب: (أنا لأحد غيرك). قال بالانجليزية: ولكن... أنا أحبك حقيقة... وهـم يقبلني فصفعته على وجهه... من يومها وهو دائم التحـدي لي ودائم التسفيه لآرائي بشكل ملفت للنظـر أمـام جميـع الزميلات والزملاء، مرة عقب على نطقي للانجليزية التـي كان يشيد بها من قبل بقوله: (يور أنجلش اذا أبر اجيبسـيانا) فبادر الطلبة والطالبات بالضحك خاصـة صـاحبة التقريـر الجائر انسيكلوبيديا اجيبسيانا التي ليس عقلها في حجم جسمها المتخم بالحقد والحسد للجميع ولكنني لم أكن أشـكو... ولـم يكن أحد يتحرك لوقف هذه المهزلة بل أن كثيرات كن يسعين

للجود بما يريد لإرضائه... والأخريات كن تهاودنه... كـن يردن اجتياز العام بنجاح... ولكن يبدو أن ثمة ثورة عارمـة كانت تعتمل في نفس بلدياتي وابن عمومتي الجعفري الـذي أوصاه أخي بي خيراً... وهو أهل للوصية كما هو واضـح في ثورته من أجلي أخيراً... ثورة كرامة لي وله... أضـم كرامته إلى كرامتي... وثوريتـه إلـى ثـوريتي الدفينـة الصامتة داخلي... والتي سأفرجها ثورة لا تبقي ولا تذر... ولا يعنيني أن تكون الحادثة فضيحة بجلاجل ستنطلق شظايا ثورتي في كل اتجاه الاتجاه قلبي... لأنها ثورة لا فورة، نعم ثورة لا تمرد يعقبه انتحار.

اللهاث خلف اللحظة الزجاجية

عندما دخلت بيتها لأول مره كان لأطلب يد أختها، دفعت ببطاقة تحمل اسمي إلى البواب كي يحملها اليهم، وحـددت السابعه مساء موعداً لزيارتي، وكان أن ذهبت في الموعـد. كل شيء في بيتهم ساعة دخلت كان ينبئ بـأنهم عرفـوا أو خمنوا أن القادم عريس لإحدى بناتهم، فأبوها كان يرتدي بدلة أنيقة ومن خلفه كانت زوجته فـي ثـوب بـراق، وحجـرة الصالون حين رأيتها من الخارج كانت مضاءه كمـا وشـت بذلك النافذة المطلة على الشارع من قبل أن أدخل البيت.

حين مررت من الصالة إلى غرفة الصالون كان البيـت مغلفاً بالصمت ولا أثر للبنات فيه، رحب الأب بي قائلاً:

-أهلاً.

قلت وأنا أفرك يدي في قلق رداً على ترحيبـه ومعرفـاً بنفسي:

قلت لنفسي في ذهول (مصابة بضعف عقلي)

وصمت لحظة ثم اندفعت قائلاً ليكن... إنني أريدها

-أهلاً بك يا أفندم. محمد سليم ليسـانس حقـوق وموظـف بوزارة المالية.

قال مبتسما:

-ذلك واضح في البطاقة... ومن مظهرك واضح أنك ابن ناس طيبين.

قلت:

-أشكرك يا أفندم... واسمح لي أن أدخل في الموضوع.

قال:

-تفضل.

قلت.

-جئت لأطلب يد ابنتكم.

قال:

-مرحباً... ولكن ياترى من منهن.

قلت:

-الحقيقة أني لا أعرف اسمها.

ثم أضفت متخذاً منظر الإنسان المحافظ:

-أنا رجل دغري... شفتها وأعجبتني فجئت أطلب يدها.

قال:

-وما العمل؟

قلت في قلق وخجل مصطنع:

-بوسعك يا عمي أن تدعهن لمصافحتي كضيف، وبعد ذلك أستطيع أن أحدد لك من منهن.

وقال في اتزان مشوب بالحرج:

-إذن... ائذن لي لحظة أشاور السيدة زوجتي ثم أعود.

وخرج وأنا أمني نفسي بالسعادة الوشيكة بعد طول مطاردة في الحي دون نتيجة، لم تكن ترد على مداعباتي أبداً، لكنها حين كنت أيأس من مطاردتها وأتباطأ بعد جري لاهث خلفها كانت تلتفت إلى الوراء في دلال وعلى شفتيها بسمة غامضة فأعاود اللهاث خلفها. كانت حلوة بضة الجسد... صدرها رجراج بلا مشد كنت أشتهيها... وفي أول مرة رأيتها حاولت أن ألقي بشباكي حولها ولم أفلح، بعد ذلك حاولت كثيراً أن أعرف بيتها، كنت أظن أن كثرة تجولها في شوارع الحي دلالاً منها تحاول أن تخفي عنوان بيتها عني ولكن بالإصرار والمتابعة عثرت على ضالتي أخيراً... عرفت البيت.

وعاد الأب بعد قليل وفي أثره زوجته. نهضـت محييـاً سيدة البيت، وبعد قليل دخلت ثلاث فتيات فنهضت مصافحاً. جلسن قليلاً ثم انصرفن.

تبع ذلك نظرة مستفسرة من الأبوين، قلـت فـي حـرج ودهشة:

-إنها ليست واحدة منهن... شيء غريب... ألـيس لكـم بنات غيرهن؟

قال الأب:

-لا... ليس لنا بنات غيرهن... لعلك أخطات العنوان يا أستاذ.

قلت

-لا إنني متأكد.

شردت قليلا. هل أقول لهما إنني أحفظ خريطة بيـتهم... بل وخريطة الحي بأكمله. هل أقول لهما إن اللهـاث خلفهـا كان ينتهي بي دائماً عند بيتهم ووقفتها في الشرفة كـل يـوم أمامي، ونظراتها التي كانت تفوق بلغتها كل لغة هل خطبت فبطل سبب دخولها لمقابلتي، لكن الأب قال إنه ليس له بنات

غير من صافحنني... هل هي الخادمة... لا... لا أتصـور ذلك، وحتى إذا كنت هي الخادمة سأسألهم على عنوان أهلها.

وفجأة لاحت من فرجة الباب مارة بدهليز البيت نـاظرة إلي بنفس الدلال وكمن وجد ضالته هتفـت بجمـاع قلبـي: (هاهي).

نظر الأبوان وقد غلبتهما دهشه مشوبة بـالقلق، تبـادلا النظر وقال الأب وهو يزدرد ريقه في حرج:.

-هل هذه من تقصد؟

قلت:

-نعم... أليست ابنتكم؟

قال: نعم ... ولكن.

قلت مقاطعاً:

-لا تقل إنها مخطوبة.

قال:

-لا ليست مخطوبة... ولكنها لا تصلح لك يا بني. قلـت في نفسي: (خرساء... لا يهم. طوال حياتي كانت أتوق إلى أن تتعطل لغة الكلام، ساعتها سيتكلم الحب بألف لسان، بـل إن الحوار بيننا قائم من أول نظرة).

ران علينا جميعاً – في لحظات – صمت أكبر من الدهر ثم عاد الأب يقول:

-يا بني... إنها مصابة بضعف عقلي.

قلت لنفسي في ذهول: (مصابة بضعف عقلي) وصـمت لحظة ثم اندفعت قائلاً:

-ليكن... إنني اريدها.

خرجت العبارة مني دون أن تمر على عقلي، فأنا أكـره كل ما يصدر عن العقل وبدا الأبوان مشدوهين فركنا إلـى الصمت لحظة، وسبحت أنا في الملكوت، كنـت أريـدها... بلهاء... خرساء... عمياء أستطيع أن أتفاهم معها كما كنـا نتفاهم دائماً في الطريق، كان الحب يتكلم ويبقى أن يمـارس وإن تكن بلهاء فالحب في الليل حين يمارس يحـول أكثـر أصحاب العقول حصافة إلى بلهاء، وهي ستكون متوائمة مع نفسها بالليل والنهار، ستتوافر لها ولـي التلقائيـة دائمـا... تطلبني في المخلـص، المخـدع... فـي المطـبخ... فـي الصالة... في المصعد ... في الطريق... على الأرصفة... وحتى لو كان أمام الناس كم أحب أن أكون مطلوباً دائمـاً... معطاء دائماً... مغلولا إليها دائماً... وأبداً.

تنبهت على عبارة الأب:

-لا يا ابني فكر جيداً... إنها ابنتنا... ونفرح لها، ولكنك أيضاً ابن لنا ولا نرضى لك إلا الصالح.

وقاطعته الأم قائلة:

-عندنا أختها... عروسه حلوة... عاقلة كاملة... تليـق بك.

وأضاف الأب مؤيداً ما قالته زوجته ومختتماً للنقاش:

-فكر يا بني فيما قالته السيدة، ورد علينا على مهل.

انصرفت وقد استفزني الكلام المنمق المرتب العاقل... لا أعرف لماذا يستفزني منطق العقلاء أستجيب دائمـاً لمنطـق الحس والشهوة اللاممنطقة،... لأنها بلهاء لا يعبأون بهـا. ينكرون عليها حق المتعة كبقية الأحياء... يتركونها بلا مشد للصدر رغم صدرها الناضج الرجراج... كل ذلـك لأنهـا بلهاء... (إذا لو أنني – لا أقدر ا – أصبت بالجنون وسرت أبكي عارياً بلا حياء، فلن يرد واحد علي أطراف الرداء).

عدت في اليوم التالي وقد عقدت العـزم علـى شـيئين: الزواج من العروس التي تليق بي على حد زعـم أمهـا... العروس الحلوى العاقلة الكاملة... عقدت العزم على الزواج

بها وعيني على أختها البلهاء عدت والسخرية تملأ نفسي من الأبوين العاقلين... كان أولى بالعقلاء إذا كان لديهم شيء من الدهاء أن يتخلصا أولاً من تلك البلهاء.

وتزوجت بأختها، وصار موضوع زواجي بأختها البلهاء موضوع دعاباتنا... لكن هذه الدعابات كانت مصطنعة على الأقل من جانبي أنا، فالبلهاء ظلت تملك علـى عقلـي بعـد زواجي بأختها. ظلت تملك علي عقلي بجاذبيتها المستمدة من بلاهتها... نظراتها إلى اللاشـيء وكأنـه ناسـك يتأمـل الملكوت... أو عالم يبحث عن الحقيقة ذلك عـدا الجاذبيـة المستمدة من صدرها الرجراج. كانت بضة الجسد. غضـة الأهاب، كنت أداعبها أمام أختها زوجتـي مسـتغلا حسـن نيتها... أقبلها مره... أقرصها في خدها مرة... وفي ثـديها مرة... وفي فخذها أخرى... كنت أتدرج معهـا ... أعبـد طريقا لمآربي... ولكن ذلك كله كان دومـا دون مـا أريـد بكثير... كانت زوجتي قيداً على مآربي لأني كنت زاهدا فيها طوال الوقت أو معظمه لا أتواءم معها الا حين تصيبها حمى ممارسة الحب بالبله. كنت راغباً في التلقائية الدائمة في محيا

أختها البلهاء. أحلم بممارسة الحب معها في أي مكان وفـي كل مكان، لكن زوجتي كانت دائماً حائلاً دون ذلك.

(يا من يدل خطوتي على طريق الشهوة البريئـة... لـك السلام، أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهارة لقاء (بكر واحدة بين العذارى).

ذات ليلة ضقت ذرعاً بكـل القيـود أو المنغصـات... انسحبت من جوار زوجتي بعد أن نامـت، وذهبـت إلـى الحجرة الأخرى حيث أختها البلهاء التي كانت ضيفاً في هذه الليلة... رحت أداعبها وهي نائمة وكانـت تتجـاوب معـي فاستبشرت خيراً، واستيقظت فواصلت مداعبتها... وكانـت تضحك في بله فلما هممت بها استعصت علي، حاولـت أن أستدرجها بفكرة الزواج لكنها قالت وهي تضـحك ببلاهـة يزينها العقل والمنطق اللذان لم أكن أتصورهما فيها. (لا يـا خويا... مانته مجوز أختي) غضبت وهممت أن أنالها عنوة وفجأة انتبهت على صرخة زوجتي من خلفي:

-حرام عليك أن تضحك على بنت مسكينة لا عقل لها.

صرخت فيها:

-العقل – العقل، كنت أريدها بلا عقل، ولم أكن أريـدك بعقلك... اخرجي من بيتي أنت وهي... فقد ثبت أن لها عقل مثلك... وقد سئمت العقول فمتى تجود اللحظـة الزجاجيـة بنفسها.

بدت زوجتي كالمشدوهة بعد كلامي لها... بـل كانـت مشدوهة فعلاً... لا بل بلهاء... بلهاء حقيقية... ترتسم على محياها كل بلاهة البلهاء... تضحك وتبكي تقبلني وتصفعني، فشكرت عوامل الوراثة.

أمسكت بها فجأة في تشنج وقلت للحظـة التـي جـادت بنفسها، شكراً، وقلت لامرأتي: (أريدك بذهولك هذا وبلاهتك هذه دائماً... مرحباً بسلوكك التلقائي العفوي، ولتخرج هـذه البلهاء العاقلة المخادعة، ومن الآن سأعشق ذهولـك أنـت وبلاهتك، ولن تكون ليالينا معاً شرعية فقط كما كانت دائماً، بل سأعشقك بجماع قلبي، ومرحباً بالتلقائية والعفوية من الآن في كل شيء وفي اللاشيء في اللامكـان واللازمـان، فـي اللحظة اللامحدودة تلك اللحظة النائمه التي ستخرجنا من حيز الزمان وإطار المكان كي نتوحد عند قمة العدو والكينونة تلك اللحظة الزجاجية الشفافة الإطار.

مغناطيس ظاهره الرحمة وباطنه العذاب

تعودت منذ التحقت بعملي أن أرسم كل فتاة جديدة تلتحق بالعمل ثم أهدي الصورة لها... وبعدها أعود إلى مكاني بسرعة،حتى لا تفوتني نظرات الانبهار التي كانت دائماً ترتسم على محيا كل فتاة فأنا أتلذذ بنظرات الانبهار هذه دائما، كانت أي فتاة أرسمها ترسم – لي صورة على الفور إذ تروح تنقل نظراها بيني وبين الصورة التي رسمتها لها وكأنها ترسم صورة لي أنا الآخر، كنت حريصا على أن تكون وسيلة التعارف بيني وبين فتيات المكتب الجديدات على هذا النحو، فنان... أنا فنان. وهي فتاة... مجرد فتاة، وكان حرصي على ذلك مبعثه أنني كنت مجرد موظف في الدرجة الثامنة مؤهله متوسط... ومعظم الباقين من موظفي المكتب جامعيون. كنت لا أرغب أن يعاملني أحد على أساس وظيفتي. لذا كنت أسارع بتقديم نفسي للقادمين بالطريقة المفضلة لدي.

رحلات أتسلى بالمشهد البشع فوق الفراش...

داخل الزجاجة المغلقة الشفافة... الزجاجة المغلقة

تكشف عن الخيانة وسط هياج الأمواج

هناك واحدة فقط لم أقدم نفسي لهاحتى الآن علـى هـذا النحو... فنان... لأنها حين غادرت دنيانا لم أكن قد صـرت فناناً بعد... فقد غادرت الدنيا قبل ذلك... بعد رحيلها بـدأت معالم الفن تزحف على كياني... كل كياني، غادرت دنيانـا لكنها تركت صورتها في مخيلتي، رسمتها... لا... حفرتهـا ثم بعد ذالك رسمتها أنا على الورق مرات عديدة ولا زلـت أعاود رسمها من حين لآخر... اذ أكتشف بعـد كـل مـرة أرسمها أن حقيقتها أجمل بكثير مما رسـمتها، أمـا فتيـات المكتب فلا تستطيع واحدة منهن أن تدعي أنها أجمـل مـن الصورة التي رسمتها لها. فأنا حريص حين أصور الواحـدة منهن على أن أصور الحقيقة..الحقيقة بلا رتوش، ولكن حين جاءت صفاء إلى المكتب لم أصورها كما هي فـي الحقيقـة وإنما أصلحت من أنفها المعقوف. أجري له خيـالي عمليـة تجميل، لم أشعر بنفسي أثناء إجراء العملية ولم تشعر هـي بي... أو بالعملية الا بعد أن أهديت الصـورة لهـا .فجـأة صفعتني بالحقيقة.. قالت :"إنك تجاملني فأنـا لسـت بهـذا الجمال... أو بالتحديد أنفي ليس بهذا الجمال).

قلت لها: (هكذا رأيتك).

قالت: إذا فأنت لم ترَ الحقيقة)

قلت: (إنها الحقيقة. كما يراها الفنان).

قالت: (إذا فأنت فنان بعيد عن أرض الواقع).

قلت: (لم يقل لي أحد ذلك من قبل).

قلت: (ربما كنت قبل مجيئي تصور الحقيقة).

واقعية إلى حد القسوة...حتى على نفسها. حاصرتني ... ضيقت علي الحصار. اعتقدت أنني أفلت من الحصار حـين ذهبت إلى دورة المياه. عدت فوجدتها جالسة على كرسـي ملاصق للكرسي الذي أجلس عليه أمام مكتبي... فهـي لـم تتسلم العمل فعلياً بعد.

قالت لي: من فضلك... أعد أنفي إلى وضعه الحقيقي.

قلت لها: اذا خذها...

تحركت شفتاى زغماً عني بهمهمات ممبهمة... (حلمـي أن آخذها).

ارتبكت حين اكتشفت أنها سمعتني... لا... فهمتنـي... لا... جرحتني حين قالت مبتسمة (إذا أخذها كما هي).

قلت: كيف.

قالت: نتكلم فيما بعد

قلت: لكن العيون تكلمت.

قالت: يبقى أن تتكلم الشفاه.

واقعية إلى حد القسوة. صارمة في واقعيتها إلــى حــد الموت.

تقابلنا خارج العمل... كان ذلك في أحد المحال النائية... صافحتني وجلسنا.

قالت: لنتعارف.

قلت: أعتقد أننا نعرف بعضنا الآن جيداً.

قالت: كيف

قلت: قلت لك... تكلمت العيون.

قالت مبتسمة مقلدة نبرة صوتي: قلت لــك... يبقــى أن تتكلم الشفاه.

قلت: لتتكلم شفتاك أولا.

قالت: صفاء محمد الدواخلي... حاصلة على بكالوريوس علوم جامعة القاهرة... في العام الماضي لاحظت الامتعاض على وجهي فقالت. مابك؟

قلت: لاشيء.. كفى.

قالت: لا زالت هناك بقية.

قلت: يكفي ما قلته.

قالت في إصرار: أبي الدكتور محمد الدواخلي.

قلت لها في هدوء مصطنع معبأ بالثورة: كفى... أعرفه.

ابتسمت في غبطة لذلك وقالت: أعرف أنك تعرفه... فهو أشهر من النار على علم... أستاذ الجراحـه بكليـة الطـب جامعة القاهرة... عنده عيادتان... واحده في ميدان طلعـت حرب. وواحدة فـي مصـر الجديـدة... ومستشـفى فـي الزمالك... وهو وقته بينهما وبين الكلية... هذا عدا عزبة في الفيوم... وأمي)؟

قاطعتها قائلاً: شرحه.

قالت: لا... أمي لا بد أن تعرفها هي الأخرى... نـوال هانم اليماني... حفيدة اليماني باشا أظن أنك تعرفه على الأقل من كتب التاريخ.

قلت ساخراً: انقطعت صلتي بالتاريخ منذ عهد التلمذة فأا لا أذكر شيئاً منه.

قالت مداعبة: لكنك على الأقل تذكر تاريخ أسرتك.

قلت: أسرتي ليس لها تاريخ بالمعنى الذي تقصـدينه... وحتي إذا كان لها تاريخ فهو أيضاً لا يعني شـيئاً بالنسـبة لي... انقطعت صلتي به أيضاً منذ زمن.

قالت ضاحكة: إذا فأنت شجرة بلا جذور.

قلت لها أنفه: ليكن.

قالت ضاحكة أيضاً: أذا... فاحذر العواصف والرياح.

قلت: مناخ مصر معتدل.

قالت: هناك رياح الخماسين.

قلت: أستطيع أن أعتكف في بيتي حتى تنتهي.

قالت: في لهجة حادة: دعنا من الهزر.

قلت: لا هزر فيما قلت.

قالت: كيف.

قلت: انقطعت صلتي بالأسرة منذ زمن.

قالت: حدثني عن ذلك... وبعدها تأكد أنني سأكون لـك أما... وأبا... وأختا... زوجة وحبيبة.

قلت لها: ليس في مقدورك.

قالت: سأحاول.

قلت: ماتت أمي وتركتني طفلاً، وبعدها بفتـرة صـغيرة تزوج أبي... وقست علي زوجته، فهربـت مـن البيـت... ورحت أصارع الحياة وحدي... وها أنذا لا زلت في حلبـة المصارعة، حصلت على الثانوية... واشتغلت بها وها أنـذا موظف كتابي بالدرجة الثامنة.

قالت: ياي... يا حرام. ألم تترك أمك لك شيئا.

قلت في اعتداد وحب: تركت لي صورتها.

قالت دون مراعاة لأحاسيسي وهي تسـوح بيـدها فـي استهانة: لا تغن من جوع.

قلت: بل إن جوفي محشو بها دائماً... فأنا في حالة شبع دائم لا أحتاج لأحد... ثم في غضب عليك أن تعرف ذلك... هل فهمت.

قالت في أسف: لك حق... ظروفنا مختلفة... وعلينـا أن نفترق قبل أن تتعقد الأمور. واقعية إلـى حـد القسـوة... صارمة في واقعيتها إلى حد الموت. قلت في سخريه: ألـم تقولي إنك ستكونين لي أما وأبا وأخـا وأختـا... وزوجـة وحبيبة.

قالت: كنت متسرعة... لم تكن صورتك واضحة لـي... البون بيننا شاسع.

قالت لها: لننصرف.

ونهضت فعلاً بعد أن دفعت الحساب... خرج كـل منـا بفرده... واخترت عن عمد طريقاً غير طريقها... وصـار البون شاسعا بيننا. لكن كلينا كان ينظر خلفه... يتأمل وجـه الآخر... كنا نسير في شارعين متـوازيين بينهمـا بيـوت تفرقنا، لكننا كنا نتوقف... ينتظر كلانا الآخر عند كل عطفة تربط الشارعين كأن هناك مغناطيسايشدنا إلى بعضنا عنـد جدوى. التقينا عند طريق عام رغم تنافر الظروف... رغـم معرفة الأهل... أهلها طبعاً... تزوجنا بعقـد عرفـي مـن صورتين كتبناه... وأبقي كل منا صوره معه. وكـان ذلـك حتى نوفر أجر المأذون قلت لها هازراً: هكـذا نحـن مثـل سارتر وسيمون وقد ميزتك على سيمون بورقة في جيبك... قالت: وما الأمان والضمان؟

وهكذا كنت أذهب إلى عملي في أول النهار... وحتـي قلت: الحب. سيمون لم تسأل عن أمان أو ضمان منه.

جلسنا نرتب الأمور... في وئام... حب تام... فقر مدقع بالنسبة لها هي التي تعودت فاخر الثياب. فاخر، الطعـام... فاخر الشراب.

ألم مفجع بالنسبة لي. فسؤالها دائماً: ماذا سنفعل؟

قلت: سأرسم وأبيع لوحاتي.

قالت: اتجاهك السريالي غير مطلوب.

قلت: إنني أجد نفسي فيه.

قالت: لكنني في جوع... لابد أن أعـيش فـي مسـتوى أهلي...حتى لا يشمتوا في... ارسم صوراً للنـاس وبعهـا لهم...

قلت: سأرسمهم على حقيقتهم...كما أراهم.

قالت: وكيف تراهم؟

قلت: أرى الدمامة على الوجوه جميعاً... ما عداك.

قالت: عليك بالرتوش لوجوههم... افعل ذلك من أجلي...

قلت في حب: من أجلك أشق الصخر... انطحه

وهكذا كنت أذهب إلى عملي في أول النهار... وحـين أنصرف أجوب الطرقات بقية النهار أرسم الصور الجمليـة للوجوه الدميمة... (أفقد روحي في النهار... أسـتحيل فـي

أواخر الليالي إلى شبح مرتعد أسأل نفسي عندما أصحو على ظل وحيداً هامداً ملقى بأرض البيت مكسوراً علـى أصـل النهار... هل انتهى زماننا... كنت أظنه ابتدا...)

فحين ولدت طفلتي الأولى والأخيرة منهـا... قلـت أن وجودها سيبعث الجمال فـي حياتنـا... لكـن المسـئوليات والأعباء زادت... وزاد لذلك تجوالي في الطرقات...

فجأة اقتحم علي حياتي صديق ثري... لم أفق لذلك بداية الأمر... لم أعبأ بالزجاجة التي كان يحملها تحت إبطه وهو يدلف من الباب. عندما دعوته لزيارتي لم يكن يحمل تحـت أبطه زجاجة ولم أكن ولم تكن زوجتي تدري حين أخبرتهـا بأن صديقاً سيزورنا أنه سيأتي بزجاجة... نصـبت الشـرك لحياتي... دون أن أدري... دون أن أقصـد حـين دخلـت زوجتي لتسلم... قدمتها له وقدمته لها ...لم أدرأنني قـدمتها له وقدمته لها.. ولا كيف كان اللقاء. أذكر فقط لقاء العيون. التقت العيون على الزجاجة... فتح الزجاجة... فتح الزجاجة واستدرجها إلى داخلها ثم أعدت أنا السدادة إلى مكانها فوق عنق الزجاجة... وخطر لي أن أبلغ البوليس عن الخيانـة...

الحبيبة والصديق... لكنني دفعت بالخاطر جانباً حين تذكرت أنني قدمتها له وقدمته لها.

رحت أتسلى بالمشهد البشع فوق الفراش الوثير... داخل الزجاجة المغلقة الشفافة... الزجاجة المغلقـة تشـف عـن الخيانة... وسط هياج الأمواج، أمواج الديوارس (تعلو وتعلو إلى حد الجنون ثم تتكسر عن أطنان من الزبد).

صرفت النظر عنهما بعد أن تأكدت أنـه لـم يعـد فـي الإمكان أكثر مما كان. رحت أرسم صفاء... رسـمتها فـي سهولة ويسر... نظرت إلى اللوحة عن بعد فوجـدت أنهـا فقدت صفاءها وعاد أنفها معقوقاً كما كانت تلح علـي ذلـك دائماً... (أريد أن أعود إلى حقيقتي)... سمعت همساً يـأتي من داخل الزجاجة:

قالت له: لن أذهب إلى العمل يوم الأحد القادم... تعالى وهات معك زجاجة.

قال: تعالى أنت إلى بيتي... هذا أسلم لي ولك وأعطاها عنوانه.

أقفلت أذني بقطعتين من القطن الطبي حتى لا أسمع بقية الهمس.

واستدرت معطياً ظهري لهما وعكسـت مـرآة معلقـة بالحجرة وجها شائها لي... فأسرعت أحطمها... خرج همس ساخر من داخل الزجاجة رغم السـدادة... ورغـم القطـن الطبي، اقتحم أذني:.

قالت: اشتر له مرآة بلجيكية حتى لا يرى وجهه على هذا النحو البشع.

قال ساخراً: سيبدو أكثر بشاعة... لأن المرآة البلجيكيـة تعكس الحقيقة... حلوة كانت أم بشعة خير لنا أن نتركه دون مرآة...حتى لا يري وجهه الشأئه فيحطمها ثانية... وربمـا يحطمنا نحن أيضاً.

قالت ضاحكة مداعبة له ومتعلقة به: لن يقوى على ذلـك ... بل لن لن يجرؤ بعد ما كان منـه... ومـا كـان منـك ومني...

فتحت السدادة في غضب ... وقلت لهما: اخرجا.

قال: كيف نخرج من عنق السدادة هذه؟

قلت: كما دخلتما.

قالا في صوت واحد: الدخول سهل... لكن الخـروج... أشبه بالمستحيل.

أمسكت بالزجاجة وألقيتها بهما من النافـذة... تحطمـت الزجاجة أمام جموع غفيرة من البشر... وتناثرت شظاياها، جرحتني... جرحتها... لم تجرحه...

تساءلت: كيف؟

قالت الجموع: إنه رجل.

قلت: وأنا؟

قالت الجموع: وهل تجرؤ على السؤال؟

أغلقت النافذة حتى أتفادى بصـقات الجمـوع. سـمعت طرقات على الباب. خفت أن أفتح فتتدفق الجموع إلى داخل البيت. لكنني سمعت صوتها في لا مبالاة يقول: أنا فقـط... افتح..

فتحت لها وقمت في سخرية بينما هي تـدلف إلـى الداخل في سرعة: ابنتك... خذيها.

قطعت أمامها صورة العقد العرفي الذي ربط بيننـا. قالت في حسرة: أهكذا تتقطع الأواصر بسهولة.

ثم في ثورة قالت: وهذه هي صـورة العقـد التـي معي... وقطعتها.

وقالت في تبجح: هات ابنتي... هي بالتأكيد ابنتي.

قلت: وهي بالتأكيد ابنتي أيضاً.

قالت: لا تستطيع أن تؤكد ذلك... دع الطفلة وسألحق به على عنوانه.

صرت إلى ذهول كبلني، وأخذت الطفلة دون مقاومة من جانبي. وقع نظرها وهي تهم بالانصراف على الصـورة التي رسمتها لها.

قالت: ماذا فعلت بي؟

قلت: أعدتك إلى حقيقتك كما كانت رغبتك دائماً... أليس هذا أنفك المعقوف... أليست هذه صفاء محمد الـدواخلي... الحاصلة على بكالوريوس من جامعة القاهرة... أليست هـذه ابنة الدكتور محمد الدواخلي أستاذ الجراحـة بكليـة الطـب

جامعة القاهرة الأشهر من النار على العلم... صاحب العيادتين والمستشفى والعزبة... الذي يوزع وقته بين هذه الأشياء... وينسى أن يربي ابنته... أليست هذه ابنة نوال هانم اليماني حفيدة اليماني باشا المذكور في التاريخ.

قالت: لماذا تتذكر الآن تاريخي بعد أن حفزتني أنت على نسيانه... أنت المقطوع من شجرة.

قلت: ثبت أن لي جذوراً تشدني إليها رغماً عني... أما أنت فجذورك مصطنعة... وهماً كان تاريخك... أو كان كذباً تضحكين به علي... تغررين بي...

ثم فجأة قلت: (هات البنت)...

قلت ذلك وأنا أمد يدي محاولاً اختطافها قبل أن تخرج بها إلى الطريق. أسرعت بالهرب بالطفلة وبإغلاق الباب خلفها بينما نصف الطفلة داخل الشقة ونصفها الآخر خارجها، وبينما هي وأنا نتخبط... تدفع هي الباب كي تنقذ الطفلة... بينما أغلق أنا الباب كي أحافظ على ما أمسك به منها. وأجذب أنا الباب إلى الداخل كي أنقذ الطفلة بينما تشدهي الباب نحوها كي يحتفظ بنصف الطفلة الذي تمسك به. والطفلة يعتصرها الباب من جانبي مرة ومن جانبها أخرى

حتى تقطعت أوصالها ولفظت أنفاسها بين ذهول كل الجموع بل شلها.

صارت الطفلة نصفين ميتـين... رحنـا نجـري فـي الشوارع... ونبذل جهداً من أجل ذلك. فقد كـان النصـفان الحبيبين. فجأة كنا حبيبين... فجأة صرنا زوجين ... فجـأة صرنا عدوين... فجأة صرنا بعيدين ثم اختفينا... لكن كـلا للشطرين كان يعذبن يجذبنا... يقربنا-حتـى التقينـا-فـي (البساتين)... ندفن الطفلة في مدافن الصدقة تنعي حظهـا أم حظنا... يا ويلنا... جاء الحانوتي يبيـع فينـا ويشـتري... أعطته قرطها... أعطته عقداً... اشترته من سنين، أعطيتـه غليوني الثمين، لم يكتف... راح يتفحصـنا... رويـت لـه الحكاية فاكتفى.

قال امرأتي: اقرأ الفاتحة لابنتك، واطلب لها الرحمـة، حاولت تذكر الفاتحة، لم أستطع ... حاولت هي لم تستطع... رحنا نطلب الرحمة لها في مقـابر الأثريـاء... والأثريـاء ينظرون نحونا فيما يشبه الرثاء... يعطفـون... يعطوننـا. نعود إلى مقابر الصدقة نستقرئ القراء لابنتنا. مـرة نسـي

ثري أحزانه... استدرج امرأتـي فـي الكـلام... قصـت حكايتنا... رثى لنا... أعطانا الرحمة وضرب لها موعداً.

قلت له: (لكنك لا تحمل زجاجة تحت إبطك).

قال ضاحكاً في سخرية: (ربمـا تغنـي الرحمـة عـن الزجاجة، واصطحبها).

سكنا مقبرة خالية بجوار ابنتنا في مقابر الصدقة. يـأتي الثري ومعه الرحمـة يعطيهـا لامرأتـي فتناولهـالي ثـم يصطحبها. آكل بعضها... وبالبعض الآخر أستقرئ لابنتنـا القراء ثم أجتر عذاباتي وأحزاني.

عرفنا كل الأثرياء... صارت حكايتنـا معروفـة لـدى الجميع، وأخيراً وصلت إلى نتيجة خطيرة. هـي أن هنـاك مغناطيساً يذبنا. صار ما يجمعني بامرأتي دائماً شيء واحد، وهو ذلك المغناطيس الذي لا أدري كنهه، لكنه شيء مجـرد شيء ظاهره الرحمة وباطنه العذاب... العذاب... العذاب.

العريس

زغرودة حلوة رنت في أرجاء البيت. الضيف الجالس مع أبي في الصالون منذ ساعة لا بد أن يكون قد جـاء بخيـر مفرح. ارتديت الروب على عجل فوق قميص النوم. غادرت الحجرة وأنا أسال نفسي ترقية لأبي... علاوة استثنائية... أو أن أخي قد ووفق على طلب نقله إلى البلدة...

وصلت إلى الصالة ولمحتني أمي فاتجهت نحـوى دون بقية أخوتي وجهها يفيض بالبشر أطلقت زغـرودة أخـرى عندما اقتربت مني ثم رفعت عقيرتها بالغناء: (ياليلة بيضا).

ارتعدت فرائصي لكنني استعدت زمام نفسي وتظـاهرت بعدم الفهم ثم سألت كالمستفسرة: (خير ياماما؟) احتوتني بين ذراعيها وطبعت لثمتين على وجنتي ثم قالت: (كله خير يـا بنتي)... مبارك عليك... والنبي انه يستاهلك.

اربد وجهي واستدرت عائدة إلى حجرتـي فـي بـرود أخافها، دخلت الحجرة وأغلقت الباب خلفي لكنها لحقت بـي ودفعت الباب قبل أن أغلقه بالمفتاح. واندفعت نحو فراشـي. ارتميت عليه ثم انكفأت على وجهي وأجهشت بالبكاء.

جلست أمي في صمت إلى جواري على حافة السرير. لم تدر كيف تتصرف في بداية الأمر. تعبت من البكاء فاكتفيت ببضع همهمات وأنات خافتة تعلن عن احتجاجي. أحسسـت أمي آنذاك أنها تستطيع أن تـتكلم فتكلمـت حـديثا معـاد، مكرر... (الرجل لا يعيبه شيء)... موظف محترم... خريج جامعة وطبيب... مركز قد الدنيا... الناس كلها تحبه ثم إنـه ابن البلد وخادم البلد) قلت لها:

- كل هذا لابأس به، ولكن سبق أن قلت لك رأيي في هذه المسألة.
- رأيك، وا عشنا وشفنا... زمان كانـت الوحـدة منا... عرفت نيتها في استئناف الحـديث المكـرر المعاد فقاطعتها في حدة:-

قلت في المحكمة: يا سيدي القاضي... كيف أوصم بالخيانة وقد زففت إلى رجل لا أعرفه...

-زمان غير الآن.

تساءلت بإنكار وامتعاض:

-وماذا تغير: هل تزيد بنات اليوم عن بنات أيامنا؟.

فتحت فمي لأجيب على سؤالها لكنني لذات بالصمت ربما لأنني أشفقت على نفسي من الحديث المعاد. استراحت أمي لصمتي الذي ظنت أنه رد فعل لنظرة الوعيد والاستنكار التي انطلقت من عينيها صوبي، ثم عادت تتكلم مرة أخرى عن أيام زمان، وكيف أن أباها قال أنها ستتزوج فلانا، وقد كان، وكيف أن الدنيا لم ينقلب حالها رأسا على عقب إلا منذ عرفت البنات الطريق إلى المدارس والجامعات. والسير في الشوارع بوجه مكشوف، وأن فلانة بنت فلان سافرت مصر مستورة، عاقلة كاملة متحشمة... ثم عادت بعد أن أنهت تعليمها في الجامعة كاشفة عن ساقيها، ومرتدية نظارة وفي حقيبتها أدوات الزينة باستمرار. قلت لها (وهل هذا عيب. إن شاء ا لا بد أن أكمل تعليمي في الجامعة مثلها). صاحت أمي في حدة: (اخرسي... قطع لسانك).

لذت بالبكاء مرة أخرى فتركتني أمي خارجة ثم أوعزت إلى بقية أخوتي أن يطبلوا ويرقصوا، وراحت هي تزغـرد بين الحين والحين.

يئست من البكاء وخطر لي انـه غيـر مجـد، فرحـت أتساءل: ماذا جرى للدنيا ولأبي وأمي والناس جميعا؟ تغيرت آراؤهم في أشياء كثيرة، وقد سبق أن أطلقت أمي زغـرودة مرحة عندما طاب أخي للتجنيد على غيـر عادتهـا وعـادة الناس فيها مضي، وأبي كان يسألني وأنا صغيرة أن اختـار واحدا من بين ضيوفه عريسا لي وكان يقول عندما تجلـس الأسرة تتسامر في ليالي الشتاء: (إن شاء ا سأعلمها مثـل محمد وحسن حتى الجامعة وأجعلها زينة بنات البلد) وتـدعو له أمي بطول العمر لكنها تضحك عندما يقول: (وسـأتركها تختار من يعجبها) كأنما كانت تحس أن آراءه ستتغير يومـا ما. ليغير آراءه كما يشاء لكنني لن أغير آرائي، وليتحمل هو عاقبة توجيهك إلى القراءة والاطلاع والفلسفة بوجه خـاص، وأبوك رقيق القلب رغم ما يتسم به مظهره الخـارجي مـن غلاظ، واسع الصدر والأفق رغم ما يبدو من عناده وصلابته في بعض المواقف، وأنت تعرفين أنه لا يكون صلبا إلا حين

يعتقد أنه على حق وأنت تعرفين كيف تنفذين إلى قلبـه مـن خلال الصفة التي يعتز بها (الرجولة) قالي له: (الرجل يربط من لسانه) وقد وعدك يوما بأن تختاري شريك حياتك. ولكن ليكن ذلك في ساعة مرح وصفاء حتى لا يصيبه الكدر. ولا بأس من تذكيره باهتماماته وأمجاده الماضية التـي ابتلعتهـا الأيام والسنون. وأنت لا تنسين منذ كنت صغيره كيف كـان يقف في الأسـواق والميـادين العامـة قائـدا للإضـرابات والمظاهرات وكيف كان يصيح في عنف محركا يديـه فـي إصرار متشنج مطالبا بـالجلاء، والحريـة والديمقراطيـة. والأخيرة هي ماتعنيك اليوم، والحماسة التي شهدتها منه فـي تلك الأيام قد نحتت في ذاكرتك نصبا تذكاريا خالـدا يرمـز لديمقراطيته. واجهيه بصورته فهو لا يسـتطيع أن ينكرهـا، وهو لن يتنصل من وعوده لك... وأنت تعرفين يف يفـرح الآباء عندما يكرر الأبناء صورتهم وقد يندهشون في بدايـة الأمر لكنهم لا ينزعجون، قولي له إنك تطلبين شيئا في عرفه حق بديهي، وإذا أراد أن يذلك على ديمقراطيته فلا أقل مـن أن يمنحك الحرية في اختيار شريك حياتك.

نامي الآن فأمك أقلقتك دون مبرر، والزغاريد التي رنت في أرجاء البيت ليست إلا انفعالات فرح تختزنها الأمهـات لمثل هذه المناسبات وهن معين للفرحة لا ينضب، فلتزغـرد كما تشاء ولكني لن أنسى النشيد الوطني الذي اعتاد أبـي أن يلقنني إياه (أني ملكت في يدي زمامي) وكم كان يبدو سعيدا عندما أردده أمامه. سأنام الآن والصباح رباح.

لا أستطيع أن أقول إنني استغرقت في النوم أو أنني نمت بالمعني المفهوم. لقد استحوذ علي قلق شديد لـذا اسـتيقظت أثناء الليل أكثر من مرة، والنوم المتقطـع يـذهب بالراحـة ولاطائل وراءه إلا الكوابيس والأحلام المؤلمة. مره حلمـت أن أبي ضربني حتى الموت لأنني رفضت الـزواج ممـن رشحه لي وبقيت أتألم حتى الموت. أيقظني بكاء أمـي بعـد وفاتي فاسترحت من الكابوس ولكن ذلك ضاعف من عـذاب ضميري فقد عرفت أن أمي تحبني كثيرا لأنها ظلت تبكـي حتى أيقظتني من سبات أبدي.

شربت كوبا من الماء ثم عدت إلى فراشي وقد تملكتنـي رغبة مجنونة في استكمال الحلم، ولكن ذلك بـالطبع غيـر ممكن، خطر لي أن أسأل نفسي: (ماذا كانت ستفعل أمي لـو

أنني مت ثم عادت إلى الروح؟ لا بد أنها كانت سترقص من الفرحة. نحيت هذا الخاطر جانبا لأنني أشفقت على أمي من الانفعالات الطارئة فهي مريضة بالقلب... حقدت على هـذه الأحلام الناقصة، ثم عدت فتسامحت معها وقلت إنها مشـوقه تماما كبعض الأفلام ذات النهايات المبتورة.

استسلمت للنوم مرة أخرى وعند الفجر ماتت أمي بسببي على نحو لم أفهمه لكنها ماتت بسببي على أية حال. صـمم أبي – انتقاما مني – أن يزوجنـي فـي الحـال برجـل لا أعرفه... قلت له: (ليس هذا عدلا... هذا ظلم... ما ذنبي في موت أمي... لقد كانت مريضة بالقلب).

لم يأبه أبي لكلامي، وعنـدما تماديـت فـي احتجـاجي ورفضت ارتداء ثوب الزفاف لكمني على وجهي وطلب إلى بعض الجارات أن يلبسنني ثوب الزفـاف، ويقيـدن يـدي ورجلي، وهكذا زففت وأنا ارسف في الأغلال فأدركـت أن شعارات الديمقراطية التي كان يرفعها أبي في شبابه كانـت مطلبا شخصيا له فقط. نقلت إلى بيت زوجي الـذي كنـت أكرهه بالرغم من أنه لا ذنب له، وبالرغم من أنـي لـم أره مطلقا. فقط كانت أسمع صوته قال لي: (سأخرج لشراء علبة

سجائر، وسأعود حالا). لم أجب وأحسست من صـوته أنـه طيب وأنه لا يستحق أن أكرهه.

تأخر كثيرا وخطر لي في تلك الأثناء أن ألقي بنفسي من أقرب نافذة، لكنني لم أستطع أن أتحرك بسبب القيود في يدي ورجلي. سمعت صوت الباب يفتح ويغلق فعرفت أنه عاد.

صوت قال: (سأفك قيودك).

لم أستطع أن أميز ما إذا كان هذا الصوت هو الذي سبق أن سمعته أم لا.

قلت لنفسي: (لا بد أنه هو، وهل أحد يملك مفتاحا للبـاب غيره).

عندما فك قيودك شكرته دون أن تنظري إليه، وفي الوقت نفسه سيطر عليك شعور بأنه أطيب مما كنـت تتصـورين. قبلك فاستسلمت له في امتنان. ضمك إلى صدره واعتصرك ثم اجتاحك إعصار... استسلمت بعده في نشوة للسعة نـار. قال لك بعدها: (أنا خارج). لم تجيبي، وقبل أن يمر أمامـك سمعت صوت الباب يفتح فهرع هو نحو الباب، وبعد قليـل تناهى- إلى أذنيك صوت شجار، فلذت بمخدعك في صـمت وقال: (من جاء بك إلى هنا؟) ثم بعد ذلك صـوت ارتطـام

جسد بالحائط. صاح صاحب الجسد الـذي ارتطـم (امسـك حرامي) تجمع الناس وكانت فضيحة بجلاجل. لمـا رآنـي مفكوكة اليدين والرجلين استطاع أن يخمن ما كان. أقسمت له أنني اعتقدت أنه هو. بصق في وجهي وقال: (اخرجي مـن بيتي) (ثم وصمني بالخيانة قلت له: إنني لم أرك من قبل، فلم يحدث أن نظرت إليك) قال :(بل تنظرين من تحت لتحـت بدهاء النساء) قاضاني بتهمة الخيانة، وتبرأ أبي مني. قلـت في المحكمة: (يا سيدي القاضي... كيف أوصم بالخيانة وقد زففت إلى رجل لا أعرفه... زففت له وأنـا أرسـف فـي الأصفاد، وأنا حين استسلمت للقادم للغريب، استسلمت له في امتنان لأنه فك قيودي وليس عن رغبة مسبقة في الإثم).

قال الرجل الذي لا أعرفه: (يا سيدي القاضـي... إنهـا قاصر، وكان طبيعيا أن يتصرف أبوها في مصيرها).

بدا القاضي مبهوتا من غرابة القضية. عدت فقلت له (يا سيدي القاضي... أنى يكون لي زوج ولم يستشرني أبي، ثم بعد ذلك أوصف بأني بغي) قال: (كذاك...) لكنه رفع الجلسة لحاجة القضية إلى مزيد من الدراسة تصايح أناس كثيـرون

من الحاضرين في الجلسة وراحوا يكيلون لي الـتهم: (لقـد تسببت في موت أمها... وخانت زوجها ولوثت شرف أبيها).

استمتّ في الدفاع عن نفسي. رحت أحاول إقنـاع كـل واحد يتهمني بأنني بريئة حتى يئست مـن إقنـاعهم وجـف حلقي. فاستيقظت في غاية الإرهاق والظمأ.

شربت قلة ماء كاملة ثم رحت ألهث وقد غطـى العـرق جسدي كله ووجهي وكأنني أحد عمال البنـاء فـي سـاعة الظهيرة. بسملت واستغفرت ا   العظيم من كل ذنب عظيم... استغثت واستجرت بالأنبياء والقديسين والشهداء فلا مجيـر ولا حياة لمن تنادي.

غسلت رأسي وقلت لنفسي وأنا أمشط شعري: لن يجيرك من عبث الشياطين بأحلامك، وتسلط الأوهام على حواسك إلا عقلك.

سمعت حركة في البيت قضت على السكون الشـامل... بشرت بيوم جديد وأوعزت إلي بالكف عن التفكير في ضوء المطلق من الأفكار، فشرعت أفكر في موقفي علـى أسـاس واقعي ونبذت الأحلام والأوهام التي تتسلط علـى حواسـي بفعل حالات نفسية معنية، ناجمة عن كثرة القراءة ولا شـك

قلت لنفسي انه مهما كان عناد أبي وزيف ديمقراطيته، وكذب الشعارات التي دأب على التشدق بها في أيام شـبابه فهـولن يرضى أن أسلب حريتي ويحرمني من حقـي فـي اختيـار الرجل الذي سأقترن به طيلة حياتي.

وأبوك لو رأى صفرة وجهك، وعلم كيف قضـيت هـذه الليلة لاستطاع أن يخمن مبلغ ما أنت فيه مـن قلـق علـى مصيرك. وأبوك بوصفه من أوائل الذين نالوا قسطا وافيا من التعليم في بلدته صار مثلا لأهل البلدة جميعا، ومـن بعـده صارت ابنته مثلا لبنات البلدة أيضا، وموقف أبيك منك فـي مسألة الزواج سيسير عليه رجال البلدة دون استثناء، وموقفك أنت مثل لبنات البلدة جميعا، إذن تريثي قبل النطق بأي كلمة وأعملي ذهنك عند كل فكرة واعقلي كل حرف قبل النطـق به، فالمسألة مسألة مصير، وهو كما تعلمين ليس مصـيرك فحسب.

نادتني أمي ساعة الإفطار فهرعت نحوها بوجه بشوش، قبلتها وألقيت تحيه الصباح على أبـي. افترشـت للمعركـة بساطا سميكا من المرح ليتلقى في حنو الأفكار الجامدة حين تسقط صرعى حتى لا يحدث سقوطها بالتالي رد فعل عنـد

المتعاطفين معها، ولطالما كانت مائدة الإفطار ميدانا للمعارك الفكرية بيني وبين أبي، على حين تجلس أمي صامتة ولكـن كلها آذان واعية... صفارة إنـذار سـاعة يحتـدم النقـاش والجدل.

والحقيقة أن أبي هو الذي بدأ المعركة، لكنني كنـت قـد تأهبت لها... أعددت له العدة وأعلنت التعبئة العامـة لكـل أفكاري وطاقاتي الجدلية.

رآني أبي ابتسم طوال وقت الإفطار وألقى الدعابات يمنة ويسرة في مرح على حين رحت أرقب بجانب عيني تـأثير هذه الدعابات عليه.

قال أبي مداعبا: إذا رأيت نيوب الليث بارزة... فلا تظنن أن الليث يبتسم.

بدأت المعركة من جانبه هادئة بطيئة على حين راح يتكلم بلهجة عادية لكنا لم تخل من حدة وعبارات مقتضبة أعقبهـا استعراض للقوة بنظرات العينين... تفاديـت نظراتـه بـأن نظرات إلى يديه وهو يأكل بضع لحظات ثم عدت فواجهتـه بنظراتي مرة أخرى وضاعفت من حدة صوتي ... قلت له:

-لقد عودتني الصراحة... واختيار زوجـي حـق لـي لاجدال فيه.

قاطعني قائلا:

- أنا لست رجعيا، فأنا لا أنكـر حقـك فـي اختيـار زوجك,, في الزمن الغابر كان الأب يقـول لابنتـه (ستتزوجين فلانا) فتتزوجه.

قلت له بحماسة شديدة.:

-دعني من الماضي. نحن في الحاضر.

قال بسماحة ماكرة:

-أنا سأعرف رأيك... إذ لم يعجبك... لا تتزوجيه.

-أنت تقلب الآية... المفروض أن أختار أنا ثم أسالك الرأي، لا أن تختار أنت ثم تسألني الرأي أنا التي سـتتزوج ولـيس أنت.

بدا على وجهه شبه اقتناع شف عن ديمقراطيته الدفينـة، فقال ملاطفا:

- كلامك عين العقل، ولكن مهما كان وعيك ونضـوجك فأنت لا تزالين في طور المراهقة. لم تصلي بعد إلى النضج الكامل، ولم تعرفي الناس كما أعرفهم.

ثم بعد لحظة صمت سألني بغتة:

-أنا أرشح لك الدكتور محمد زوجا... هل عندك أحسـن منه.

بدا على وجه أمي الامتعاض من سـؤال أبـي، لكنهـا انتظرت أن تسمع إجابتي.

قلت له:

-هذا سؤال معجز... فأنت تعلم أني لا أعرف أحدا ممن تقدموا.

قال مقتنصاً الفرصة.

-حسنا.. لكنك لا شك سمعت عن الدكتور محمد.

قلت مستسلمة:

-نعم لأنه مشهور في البلدة... وعالج من الناس الكثيـر وأمي إحداهن...

قاطعني أبي ليضيف محبذا:

-وابن البلدة المحبوب من أهلها... كما أنه ليس جشعا أو مستغلا كأسلافه، ومن نعرفه أحسن ممن لا نعرفه... قلت له وقد سيطر علي شعور بالهزيمة غامض:

-لكنني بذلك أكون قد أضعت حلمي في الاختيـار إلـى الأبد.

قال بلهجة عاقلة حكيمة تأسو الجراح:

-أمس... أمك فرض عليها الزواج... واليـوم أسـألك الرأي في زوجك... وغدا تختار ابنتك.

كنت قد قررت أن أستسـلم للعقـل بحكمتـه، وأن أنبـذ الفلسفات المطلقة واللانهائية وكان الاستمرار في النقاش بعد أن اقتنعت داخليا ضربا من العناد والمكابرة لا معنى له ولا طائل من ورائه إلا الوساوس والمتاعب والأرق، كما أنه لـم يغب عن ذهني أن أبي يزداد عنادا وصلابة عندما يعتقد أنه على حق وأدركت أنني حين أناقشه في مثل هـذه الأحـوال أكون كمن ينفخ في قربة مقطوعة، لذا استسلمت لرأي أبـي وعلى شفتي ابتسامة فاترة أرضية رغم كل شيء على حـين راحت أمي تطوف بأرجاء البيت، وتـوزع الزغاريـد فـي جنباته.

وزففت إليه وكنت سعيدة فأنت لم تكوني مكتوفة اليدين أو القدمين على أية حال وأبوك قد سألك الرأي في الزواج، وهو رجل ناجح... حقيقة أنك لم تشعري حياله بأي عاطفة فـي

البداية لكن كل شيء يحدث بالتعود، وأحلامك في الاختيار لم تهمليها تماما وإنما حدثت زوجك عنها، فوافقك على اختزانها لابنتك... شعرت حياله ساعتها بعاطفة كالتي شـعرت بهـا حيال من فك قيودك، قبلك فاستسلمت في امتنان، ضمك إلى صدره واعتصرك ثم اجتاحك إعصار استسلمت بعـده فـي نشوة للسعة نار. قال لك بعدها. (أريد أن أنجب بنتـا حلـوة مثلك) فسألته: (وهل هذا وقته؟... نحـن الآن فـي مرحلـة انتقال من التعب إلى الراحة... نستريح أولا ثم نفكـر بعـد ذلك).

باقة الحب ... كرة مرتدة

وقبلت خطبة أحد الذين تقدموا لها ولم يبـق إلا تحديـد موعد الشبكة... سيف أغمد في قلبي، بعد أن صارحتها بأنني قد أعيتني الحيل في تدبير ما يكفي للتقدم لخطبتهـا أغمـدت السيف في قلبي... قال لها أهلها لو كان يريدك لكان قد تقدم لك، وقبلت ذلك الذي يكبرها بل يكبرني أنا بكثير... أنا الذي أحببتها وظللت أحبها بجماع قلبي... ذلك الذي أغمدت فيـه السيف. أردت أن أرد السيف إلى نحرها. فكرت في ألعوبـة شيطانية كتلك التي تعودت مشاهدتها في دور السينما. بعثت لها بخطاب أقول لها فيه إنني أريـد أن أسـلمها خطاباتهـا وحددت موعداً لذلك. وجاءت رباب شاكرة... لكنني نظرت إليها نظرة متبجحة فاجرة وهددتها بأنها إذا لم تسـتمر فـي لقائي كما تعودت سأسلم خطاباتهـا لخطيبهـا واسـتعطفت وتضرعت وتشفعت بالماضـي وبالحـب القـديم قالـت إن خطاباتها باقة حب وليس ذنباً اقترفتـه ولـم تجـد شـفاعة فانصرفت بقلب كليم. وقالت إنها ستفوض أمرهـا ولـن تعود لمقابلتي مهما حدث.

وسرت عائداً إلى بيتي وتتابعت صور الماضي أمامي... هي في صغرها تبادلني الكرة... أقذف الكرة بعنف فتلقي بها على الأرض وتنهض هي فتلقي بها إلـى بيـدين حـانيتين فأتلقفها في حنان. علمتني الحنان والحب منذ نعومة أظفارها، فلماذا أغمدت السيف في قلبي... أليس واجباً أن أراده إلـى نحرها. إن الحنان يولد الحنان. وكذلك لابد للقسوة أن تولـد القسوة أو هكذا حاولت أن أقنع نفسي رغم علمي بأن في ذلك مغالطة كبرى. هي قد انتظرت كثيراً. وأنا لم أستطع براتبي الصغير أن أفعل شيئاً.

أليس من حقها أن تولي وجهها شطراً آخر. وأنا أيضـاً سأولي وجهي شطراً آخر... ولكن شطر الحرام الـذي لـم أجربه في حياتي مطلقاً. الحب ألعوبة الصغار وقد ولى زمانه والجنس مطلب الكبار سأمارسه حتى السأم. ومن يدري قد لا أصاب بالسأم فأظل في نشوة دائمة تفوق كل نشوة... وهـي كأس لا تفرغ، وإن فرغت فإنني أستطيع أن أعبئ

ولكن ماذا أفعل وكأس الحب الذي لا يفرغ أصبح بمنأى عني...

الكأس... والزجاجة تلو الزجاجة... مهلاً... مهلاً... من أين؟ ولكن ماذا أفعل وكأس الحب الذي لا يفرغ أصبح بمنأى عني... ماذا أفعل... ماذا أفعل؟.

وعدت إلي بيتي مشـتت الـذهن... ثـائر الوجـدان... والدموع متجمدة في المآقي... ولم يبق إلا القليـل وأشـرف على الجنون.

أمي تتحرك في البيت تباشر أعمالها ولا تدري بما يدور في أعماقي وأبي يصلي فهل تنالني بعض بركاتـه؟ وتـردد صوت أم كلثوم في الراديو:

القلب قد أضناه عشق الجمال

والنفس قد ضاقت بما لا يقال

وختم أبي صلاته بينما أنا أردد في بلاهة مطلع الأغنية، وفاتني أن أقول لأبي (حرما) كما تعودت فبادرني بقوله فـي طيبة ملهمة:

-هل عندك ما لا يقال يا بني؟

لزمت الصمت... كرر أبي السؤال فقلت (نعم) قال:

-إذا فقد ركبك شيطان رجيم... قم وتوضأ وصـل ثـم نتحدث. قلت في أنفة (لن أصلي).

قال في هدوء حزين:

-وأنا لن أسمعك حتى تصلي.

ولملم عباءته ونهض تاركاً السـجادة مفروشـة وكـأن لنقوشها أغراء... وبي رغبة عارمة في أن أتخلـص مـن الكدر وأنعم بالصفاء، وعلي الفور نهضت فتوضأت وصليت وختمت صلاتي فقال لي أبي: حرما. أجبته والقلب لا يـزال به بعض الشوائب، والعقل مائج بالحركة دائب فاجأت أبـي بسؤال:

-ألم تزن في حياتك؟

أجاب بالقطع:

-لا.

تابعت السؤال بسؤال.

-ألم تحب؟

سكت قليلاً ثم قال:

-الحب... أحببت وكان حباً نظيفاً.

-أكانت أمي؟

-لا... كانت امرأة أخرى تعرفها أمك.

-تعرف أنك كنت تحبها؟

-نعم... ولكن بمجرد زواجها انتهى كل شيء.

-من هي؟

-لا شأن لك.

-لماذا؟

-هي يرحمها ا ... وأبناؤها رجال يكبرونك.

-هل لا زلت تحبها؟

-الإنسان يحب ذكرياته.

-ألم تفكر في مواصلة حبك لها بعد زواجها؟

-لم يخطر هذا لي على بال.

-لماذا؟

- التزمتُ والتزمتْ... واحترم كل منـا التـزام الآخـر والتزامه.

-ماذا كنتما تقولان في أحاديثكما في فترة الحب؟

-كنا محبين للأدب... وكنا نتناقش فيما نقرأ.

-فقط... ألم تقبلها مثلاً؟

قال في حزم وغضب:

-هذا تهتك لم نكن لنسمح به... انتهى حديثي معـك. إن أبي لا زال يحبها رغم حبه الكثير لأمي... أو لعلـه يحـب

ذكرياته كما قال ويغار حتى على ذكرياته فيا له من حب لم تغيره ظروف الزمان. ترى ماذا سيفعل الزمان بحبي الـذي ختمته بابتزاز حقير؟ اعترتني ثورة شديدة على نفسي ولكنني في وقت كنت حائر اللب، خائر القوى من التعـب فعـاودت أستسمح أبي في استئناف الحوار.

قلت له:

-سألتني هل عندك ما يقال ولم تسمعني.

قال في غيظ في البداية:

-قال ما عندك.

رويت له الحكاية بصراحة تامة وقلت إنني نـادم علـى تهديدها وختم هو حديثه بأنه لا بد من إعادة خطاباتها إليهـا حتى لا تلسعها كل يوم سياط الخوف من التهديد. وحتـى لا تتحول صورتي عندها إلى إنسان مبتز وضـيع... ووافقتـه وسألته:

-لكن كيف وقد قالت إنها لن تقابلني بعد ذلك؟ قال:

ليس من الضروري أن تقابلها... فلتذهب أمك بالخطابات إليها ولتكن حجتها أنها ذاهبة لتهنئتها ووافقت علـى الفـور وكتبت خطاب اعتذار لها لم أنس أن أضمنه آيـات الحـب

والاحترام والتهنئة وتمني السعادة لها تلك التي كنت أرجو أن تكون معي... وقلت لها إن خطاباتها باقة الحب تعود إليهـا بكل الحب وذهبت أمي وعادت بشوشة الوجه لـم أعـرف لماذا؟

سألتها في لهفة عنها كيف كانت... هل كانـت غاضـبة مني هل سامحتني هل... هل... هل؟

ولكن أمي كانت متهللة الوجه لا تكف عن الضحك.

فأصابني الذهول.

أشفقت علي من الذهول وقالت:

-اسمع يا سيدي إني ذهبت إلـى هنـاك. هنـأت أمهـا وانتحيت بربابا جانبا وأعطيتها الخطابـات فلمحـت أمهـا الخطابات في يديها ولم يكن هناك بد من مصـارحتها بأنهـا خطابات ابنتها ترد إليها.

وقلت لها إن ابني كان يتمناها زوجه لنفسه لولا أنه ليس مستعداً بشكل كاف. فأمسكت هي بخيط الكلام وقالت:

-لم نكن نريد منه أبيض ولا أسود يا سـت أم أحمـد... الناس لا تحسب قيمتهم بالنقود... بيتكم واسع وكان يمكن أن يتزوج فيه فنحن أعرف بأزمة السكن... وأزمات الشباب...

وأحمد خير من ذلك الذي يكبرها فلو أنكم تقولون فقط إنكـم تريدونها له لحسم الأمر فالأمر لم يخرج من يدنا بعد، فنحن لم نحدد موعداً للشبكة بعد. قولي لأحمد وردي علينا.

قلت لها: أحمد قال لي على كل شيء وأنه كان يتمناهـا لولا ظروفه وأنت قد علمت بظروفـه وارتضـيتها فشـكرا وسنأتي في مساء الخميس القادم لقراءة الفاتحة، وجئت إليـك بالخبر يا أحمد.

صمت لحظة ثم قبلت أمي وقبلت أبي الـذي قـال لـي: (صلي ركعتي شكر على الفور).

ونفذت تعليمات أبي في بشاشة وحب وخضـوع . ثـم استلقيت نائماً أحلام أحلاماً سعيدة... رأيتها وهي تتلقف منـي الكرة بيدين حانيتين... ورأيت باقة الحـب... خطاباتهـا... وهي ترتد إليها... كرة مرتدة غير مقصودة تصيب الهـدف في الصميم.

وفجأة وقع بصري على جسد أفعى تتلوى جوعاً على
إيقاع الحب في حجرة ابني وزوجته

العجوز والحب

(١)

أنا رجل واثق بنفسي إلى أبعد الحدود... من هذا المنطلق أخوض غمار الوجود بعد انقضاء أربعين زوجتي أم الولد والبنتين بيومين تزوجت في بيت آخر وتركت البيت لهم ولأمي... حاولت تكتم الخبر لكنني لم أفلح في ذلك لأكثر من أسبوع رغم أنني قلت لأبني وبناتي إنني مسافر في مهمة عاجلة. فبقدر حرصي على تكتم الخبر، كان حرص أهل زوجتي على إعلانه، مباهاة بزواج ابنتهم مني أنا التاجر الميسور. علم أهل زوجتي الأولى، وكانوا أول من جاءني إلى بيتي الجديد معاتبين. قلت لهم (تزوجت ياناس على سنة ا ورسوله... فهل كفرت).

قالوا: (لا... ياسي أحمد ولكنها في عمر بناتك)

قلت: ألم تتزوج قبلي؟

قالوا: كان في مثل سنها... ولم ينجب منها فطلقها، ووجدك أهلها لقطة... تاجر غني قد الدنيا، تزوجتك على طمع... و إلا فلماذا تزوجتك وكانت منذ سنتين تلعب مع ابنك أحمد في الشارع؟

ضايقتني العبارة الأخيرة... خاصة وأنها كانـت ضـمن خواطري التي تؤرقني من قبل أن أعقد عليها. قلت لهم فـي حسم: (تزوجت وانتهي الأمر فماذا تريدون؟). كانت عبـارة حاسمة فعلاً فانفض الجالسون، دون أن يشربوا شيئاً مما قدم لهم.

قبل أن أتزوج قلت لصهري الذي عرض علـى ابنتـه، (ولكن. البنت أصغر مني بكثير) قال مداعباً فحـولتي: (مـا فيش بنت تصغر على راجل... ولا تكبر على راجل) فأمنت على كلامه إرضاء لنفسي وإراحة لعقلـي وتـدعيماً لثقتـي بنفسي.

وتم الزواج... قضيت في البيت الجديد بضعة شهور في نشوة، أهملت خلالها ابني وأختيه، مطمئناً إلى رعاية أمـي لهم. أما أعمالي فقد أصابها الخلل نتيجة انغماس في النشـوة مع تلك الفتاة الصغيرة. وعبد فترة خطر لي أنه من الإسراف أن أنفق على بيتين فعرضت على أمي أن نضم البيتين وقـد كان. قدمت زوجتي الجديدة لابني وابنتي قائلاً: (سلموا على أبلتكم) زموا شفاههم في استنكار ثم قالت البنتان في امتعاض (أهلا يا أبلتي) أما ابني فقد ظل صامتاً، يشف صـمته عـن

كبرياء دفين. أراحني صمته رغم كل شيء. أما البنتان فقـد شهد البيت صراعات بينهما وبين زوجتي منذ البداية. والآن وقد زوجتها فقد استرخت إلى حد ما، لم يبق في البيـت إلا أمي وابني، وزوجتي وأنا، ظلت هيبة أمي موجـودة لـدى زوجتي لأنها مستمدة من هيبتي. أما ابني فقـد ظـل علـى صمته المتكبر رغم ما يبديه من احترام ظـاهري لزوجتـي متمثلاً في كلمات (أبلتي، وحاضر يا أبلتي).

(٢)

كانت الأيام تمضي دون أن أشعر بتغير فيما حولي، لكن ثمة تغير راح يشق طريقاً له في نفسي. تمثل لـي أول مـا تمثل كخاطر مجنون سرعان ما حولته إلى سؤال لزوجتـي حاولت أن ألبسه ثوب دعابة غامضة بعد سهرة حب معهـا (من يكسب أنا... أم زوجك الأول) قالت فيما يشبه الهـرب (أهو... أحمد زي الحاج أحمد).

تعودت بعد زواجي الثاني وبعد ضـم البيتـين أن أرى زوجتي حريصة على إقامة حاجز بينها وبين ابني، وكان هذا يريحني وإن يكن مفتعلاً خاصة وأن حاجز السن كان مفقوداً بينهما. كانت تناديه باسمه مجرداً بينما يناديها... يا أبلتـي.

مع الأيام كانت ملامح الرجولة تزحف علـى وجـه ابنـي وجسده، فارتسم شاربه وصار جسده مفتولاً بينما أنا أصـير إلى إعياء وهزال بحكم السن الذي راح يقربني من الآخرة... ويبعدني عن الدنيا، أيضاً كانت معاملات زوجتي الصـغيرة في الفترة الأخيرة تقربني من الآخرة وتبعدني عن الدنيا.

لاحظت إلحاحها الزائد على فكـرة تقـول إنـي أهمـل صحتي، ولاحظت أيضاً إلحاحها الزائد على فكرة أن أذهـب لأداء فريضة الحج. لاحظت توددها لابني، ولاحظـت أنهـا بدأت تضيف إلى اسمه كلمة (سي) أزعجني أن يكـون فـي البيت اثنان باسم (سي أحمد) أنا... وابني، كمـا أزعجنـي تذكيرها له في الفترة الأخيرة بطفولتهما معا.

كل ذلك لاحظته في صمت. وفي صمت أيضاً قررت أن أذهب للأراضي الحجازية للحصول على لقب حاج لا أكثـر لقب يميزني عن ابني ويعيد هيبتي ويحفظ توازن البيت.

ودعني أبنائي وزوجتي وأهلها في المطار وقلت لزوجتي (تمتعي في فترة غيابي بالإقامة مع أمك) قلتها بلهجـة مـن يسبغ عليها كرماً.

قالت: (وسي أحمد... من يطبخ له... ويغسل له)

قلت: (البركة في أمي وأختيه)

قالت: (آه) وبدت في آهتها كالمستسلمة على مضض.

(٣)

عدت من الأراضي الحجازية ومعـي مـن الأعشـاب والعقاقير والأدوية المنشطة أكثر ممـا معـي مـن الهـدايا لأولادي وأمي وزوجتي. حدثتها في بداية خلوتنا الأولى بعد عودتي عن هذه الأعشاب والعقاقير وما سمعته عن مفعـول السحر الذي لها. وكانت بضع ليال سألتها بعدها مداعبا(مـا رأيك) فقالت مداعبة أيضاً: (وهل أحمد زي الحاج أحمـد؟) أزعجتني هذه المقارنة بيني وبـين ابنـي وان تكـن غيـر مقصودة. وكانت ليلة صار الحب بعدها تجربة مضنية للعقل والجسد.

اقترحت على ابني فجأة أن أزوجه وفرح للفكـرة كمـا فرحت أنا لأني باقتراحي هذا وبنجاحي في إقناعه كنت كمن نجح في دفع الخطر عن نفسه. وتزوج ابني في نفس البيـت معي.

(٤)

بعد فتره هجرت حجرة زوجتي إلى حجرة أمي، خاصـة وأن ليالي الحب كانت تنتهي بنا إلى فشل ذريع.

(٥)

في صباح أيام الجمعة كنت ألاحـظ زوجتـي تطـوف بشرفات البيت. لحقت بها ذات مره وسألتها عن سـر ذلـك فنظرت إلي بطرف حزين ثم أشارت إلى البشاكير المنشورة في الشرفات المقابلة والمجاورة وقالت: (شايف يا حاج).

انسحبت مهزوماً وتولاني الأرق منذ تلك اللحظة.

(٦)

ذات ليلة من ليالي الأرق، خرجت من حجرتي وسـرت إلى دهليز البيت في الظلام، وفجأة وقع بصري على جسـد أفعى تتلوى جوعاً على إيقاع الحب في حجرة ابني وزوجته، ضغطت على مفتاح النور الكهربي فوجئت أنهـا زوجتـي وتيقنت أنها قريباً ستلدغني لو سنحت الفرصة، عاد كلانا إلى حجرته دون أن نتبادل كلمة.

(٧)

عدت إلى الحجرة التي أقيم فيها منـذ مـدة مـع أمـي، وقضيت بقية الليلة نصف جالس، أشعل سيجارة من سيجارة،

وخطر لي قول أمي لي في طفولتي إن (الحية لدغتها والقبر) أي لا شفاء لها.

(٨)

في الصباح لم نتبادل تحية الصباح كالعادة. كانت العيون تقول إن كل شيء قد انتهى. ولكن كان لابد أن أنطق الكلمة حتى وإن أصابتني بغصة: (اسبقيني إلى بيت أهلك وسألحق بك بعد قليل).

لم ألحق بها ولكن لحقت بها ورقة.

أنا رجل لم يعد يثق بنفسه إلى أبعد الحدود...

من هذا المنطلق أنسحب شيئاً فشيئاً من هذا الوجود.

السلام باليد اليمنى

انتحى المحاضر به جانبا بعد المحاضرة وقال:

-لم يكن أمامك خيار. الموت أو الحياة مبتـور السـاعد والحياة حلوة برغم كل شيء.

قال له:

- ولكنني لم أختر هذه الحياة.

أجابه:

-لم تكن في حالة تسمح لك بحسن التفكير فاختـار لـك أهلك وذووك، وياله من مسئولية تحملوها نيابـة عنـك... مسئولية الخيار أمام الموت.

شرد بذهنه بعيدا تلك هي المسألة) فحياه المحاضر بإيماءة من رأسه ثم انصرف تاركا إياه لخواطره وياله من خواطر دفاقة سلسلة من الخواطر لا تنتهي... وحالة الشـرود هـذه التي راحت تنتابه كثيرا بعد تلك الحادثة غير المتوقعة وذلك الجرح البسيط في ذراعه، بل ذلك الشر المميت (الغرغرينا) أجل شر مميت، فبعدها لم يكن هناك من بد من المـوت أو بتر ذراعه.

خطر له أن هذه المحاضرات ليست إلا نوعا من العـزاء عما ضاع... وما ضاع ضاع، ولا رجعة له اندمل جـرح وظهر على أثره جرح جديد بالقلـب لا ينـدمل ولا تطيبـه محاضرات العزاء. ويوما هب قائلا للمحاضر:

-لماذا نحن هنا؟ محاضرات العزاء هذه مضيعة للوقـت وتذكرة لنا بالحوادث والظروف التي أدت إلى ما نحن فيـه، ومركز التأهيل هذا سجن لا يمكـن أن نسـميه اختياريـا، ومضيعة لوقت الأهل والأصدقاء في المجيء لزيارتنا بـين حين وآخر، نحن... أو أقول أنا شخصيا أريد العودة والحياة بين أهلي وإخواني وأصدقائي.

هدأ المحاضر من حدة غضبه وقال:

-أولا هذا ليس بسجن ولا إجباري، أنت هنا لمدة وجيزة تؤهل خللها لمواجهة الحياة من جديد... تأهيلا بدنيا ونفسـيا ودوري أنا هو التأهيل النفسي... وأنتم أسوياء والحمـد . أنت هنا أساسا للتدريب على استخدام العضو النـاقص فـي ظروفه الجديدة وتقدم لك التدريبات النظرية والعمليـة علـى ذلك، أما فيما يختص بالجانب النفسي وهذا... ما أجيء مـن أجله فهو تدريبكم على تحمل نظرات الرثاء من الناس الذين

يخطئون بهذه النظرة إليكم... فالحياة والتكنولوجيا الحديثة لم تترك مجالا لرثاء الناس مـن أجلكـم، فهنـاك الأطـراف الصناعية كالخطاف، كما أن المجتمع عندما تخرجون بعـد التأهيل بإذن ا قد هيأ لكم كل أسباب الراحة ممـا أنجزتـه التكنولوجيا الحديثة، أيضاً هناك سيارات خاصة بـالمعوقين اخترعت حديثا، تساعدكم على الانتقال بسهولة مـن مكـان لآخر وقيادتها بأنفسكم. وهناك أماكن خاصة في (الباصـات) للمعوقين ومصاعد في المصـالح المختلفـة خاصـة بكـم، وفصول فـي الأدوار الأرضـية مـن المـدارس خاصـة بالمعوقين. والمجان أمام العباقرة منكم بإذن ا كي تضـيفوا لهذه المخترعات جديدا. وابتسم مختتما كلامه معـه مـداعبا وأنت تعرف أن كل ذي عاهة جبار.

وانصرف المحاضر وقد ترك في نفسه وميضا من الأمل وتراءت الحياة أمامه وضاءة باسمة، وانتشرت حوله بعد ذلك أشعة الأمل فانجابت همومه وإن ظلت تعاوده من حين لآخر.

كان جاسم يجد في زيارة أهله له نعمة ونقمـة فـي آن واحد، كان يسعد بوالديه وأخواته ولكن عينيه كانتا تـدمعان كلما رأى أعينهم مسلطة على يده المبتورة، هاربة إلى بعيـد

كلما ضبطها مساطة على يده المبتورة، كان الأسى يملأ نفسه بسبب ذلك، و(حصة) ابنه عمة التي يعزها ويكن لها الحب ملء فؤاده كانت حين تزوره تعامله برقة أكثر فيشعر منها بالعطف لا بالحب الذي تعود عليه... وكان يرى الهلع في عينيها وهو يمد يده الخطافية مصافحا فترتد يده في خزي، وتموج عيناه بالدموع... يداريها خجلا وتتدافع الخواطر بصوت عال محدثا بها نفسه ومحدثا (حصة) في الوقت نفسه : آسف يا حصة ..ليس ذنبي ..لقد علمونا في المدارس أن السلام باليد اليمنى، والأكل باليد اليمنى والعمل باليد اليمنى، كل شيء باليد اليمنى وبدونك ياحصة لن يكون سلام لا مع المجتمع ولا مع نفسي، وسأضرب بيدي الخطافية في كل اتجاه وليكن ما يكون.

وتحاول حصة تهدئته بعبارات مطيبة للخاطر ولكنه لا يترك لها المجال... ويستمر قائلا:

-حتى حين أتزوج لا أعرف كيف سأضع يدي في يد صهري... حتى خاتم الزواج بتر مع الجزء الذي بتر من يدي اليمنى!!

وابتسم في مرارة وقال: ربما كان هذا رمز لـ..

ولم يستطع أن يكمل حين وضعت حصة يدها على فمـه كي تسكته، فبكي في داخله، ونظر إلى اختلاج عيني حصـة حين قال ذلك، وخطر له أن مسألة زواجـه منهـا سـتكون موضع إعادة نظر من جديد فـاحتبس الكـلام فـي حلقـه، وأصابته غصة، فابتلع ريقه في مرارة والتزم الصمت حتـى انتهت الزيارة وانصرف الأهل والأقارب دون أن ينبس ببنت شفه، حتى حصة التي ابتسمت له ومدت يدها في شجاعة كي تصافحه، أشفق على نفسه من تكرار نظرة الهلع في عينيهـا عند اقتراب الخطاف من كفها فلم يمد يده لها فارتدت يـدها في حرج إلى جانبها، وانصرفت في حزن وهي تجر قدميها وراح هو يرقب خطوها الحزين حتى اختفت عن ناظريـه. فراح يبكي داخل نفسه وهو يتمتم حصه... حصه... حصـه راحت... راحت... راحت... وكانت الأخصـائية النفسـية تجلس غير بعيدة فاقتربت منه في حنان وقالت:

- جاسم... أرى في عينيك دموعا.. لم؟

مسح عينيه بسرعة وأجابها قائلا:

- لا؟ أبدا تذكرت الجرح اللعين.

لكن الأخصائية قالت مداعبة:

-أرى أن السبب ليس الجرح اللعين وإنما جرح وحـزن بالقلب لا موجب له.

ابتسم في حرج وقال:

-ماذا تقصدين؟

قالت:

-من القلب مدت لك يدها وأنـت الـذي عزفـت عـن مصافحتها.

قال وقد انتابته رغبة عارمة في الاعتراف لها إلى حـد تعرية نفسه:

-سأصارحك بكل شيء.

وحدثها بمخاوفه جميعا وأولها... مسألة توقعـه إعـادة النظر في مشروع زواجه من جانب خطيبته حصـة ومـن جانب أهلها أيضا... ومسألة أنه مهندس يعمل بيده اليمنـى، واحتمال عدم استطاعته العمل بعد ذلك وأنه يكره أن يعـيش عالة على أبيه مهما كان أبوه غنيا لأنه لا يطيـق أن ينفـق عليه هو وزوجته وأولاده فيما بعد.

ابتسمت وقالت:

-سرني منك أنك تعتز بالاعتماد على نفسك واحترامـك للعمل كقيمة كبرى من قيم الحياة. ولكن التكنولوجيا الحديثـة قد وفرت على العاملين كثيراً من الجهد البـدني كاسـتخدام اليدين إذ تكفي يد واحدة تضغط على زر في الآلة كي تعمل تلك الآلة.

وأضافت قائلة:

-كذلك أقول إن المهندس عقل موجـه أساسـاً، ولـيس ضروريا أن يعمل بيديه، إذا يكفـي منـه إبـداء توجهاتـه للملاحظين والعمال.

سكتت قليلاً ثم أردفت تقول مرة أخرى:

- وبمناسبة العقل... أسألك لماذا تعمل عقلك في التفكير دائماً؟... لم لا تمارس رياضة بدنية إلى جانب إغراقك فـي الرياضة الذهنية؟... الملاعب والأدوات الرياضية بمجالاتها المختلفة موجودة... ألا تعرف أن هناك مسابقات رياضـية عالمية للمعوقين.

لوح بيده الخطافية في استنكار وقال:

-لم يبق إلا أن أجعل من نفسي فرجة للنـاس يتفرجـون عليها، يتسلون بها، ويتندرون بعجيب أمورنا كما تبدو فـي أنظارهم.

اعترضت بيدها في حنو... قائلة.

-هذا غير صحيح، إن الرياضة... تخلـق توازنـا فـي الشخصية يساعد الفرد على حسن تقييم الأمور ولهذا نحرص عليها هنا ولا نريد أن نحرم المعوق منها... فهو بحاجة إلى اتزان الشخصية... وسداد الرأي كي يسدد ا خطاه... هـذا بالإضافة إلى أن هناك كثيرا من المعوقين يضربون أرقامـا قياسية في المسابقات الرياضية لا يقوى عليها الفـرد غيـر المعوق.

ابتسم في مرارة وقال:

-إذا سيدتي لماذا لا يوحدون المسابقات حتـى نتسـاوى معهم في نظر المجتمع؟... ذلك إذا كان صحيحا ما تقـولين.

ابتسمت وقالت:

-ليس من العدل إطلاقا أن نساوى معيار التفـوق بـين المعوق وغير المعوق. لأن غير المعوق متفـوق باكتمـال أعضائه التي تساعده على التفوق. ومع ذلك أقـول إن هـذه

نظرة وجيهة منك ويجمل بك أن تسجل رأيك هذا على ورقة تضعها في صندوق المقترحات. والآن كفى نقاشا... آن لـك أن تخلد إلى النوم والراحة وتصبح بخير إن شاء ا .

انصرف هو بينما اتجهـت الأخصـائية إلـى التليفـون وانشغلت بمحادثة هاتفية طويلة.

*****

في الصباح استيقظ ليجد على طاولة قريبة باقة ورد ذات أريج فواح ينتشر عبقها في المكان، ألقى نظرة باسمة، أتبعها بنظرة رضا عن كل من حوله وما حوله حـين اكتشـف أن الباقة مضمخة بعطر اسمها حصة... كـان توقيعهـا تحـت عبارة... (أنا في انتظارك).

ضغط على زر في الحائط فجاءت المشرفة فقال لها:

-هل سأل عني أحد؟

قالت:

-نعم... الآنسة حصة... وهي بانتظارك في الصالون.

هرع إلى الحمام ليغتسل ويحلق ذقنه وفجأة تذكر أنه ليس في بيته وأنه لا يستطيع أن يحلق ذقنه بيده اليمنى وأن عليـه أن ينتظر دوره مع الحلاق... خطر له أن يطلب مـن أحـد

زملائه أن يتنازل له عن دوره ولكنه خجل حين رأي أنه في عجلة أيضا، وأن بانتظاره ضيوفا هو الآخر.

قال للمشرفة أخبريها أنني سأتأخر عن لقائها مدة نصـف ساعة، ولكن حصة لم تترك له المجال دخلت وفي يدها عدة الحلاقة الكهربائية الجديدة... وضحكت قائلة:.

-ما رأيك لو تعطيني المجال كي أنتفع بنفحة (البقشـيش) من يدك السخية بدلا من الحلاق... هل تسمح؟

ضحك ملء شدقيه وقال:

-أنت يا حصة. غير معقول.

ابتسمت وقالت:

-ولم... لا... ألست خطيبتك... وسأكون زوجتك بعـد أسبوع... وأم أولادك بإذن ا بعد ذلك بقليل؟!!

قال في غير تصديق:

-بعد أسبوع من قال هذا؟... كفى مزاحا.

قالت:

-أبي وأبوك اجتمعا... وقـررا ذلـك... وأنـا موافقـة تماما... هل لك رأي غير ذلك؟

قال في ارتباك:

-أنا... أبدا... لا... لا أصدق... قلبي تغمره السعادة... والحب... وأحس أن لي كفين وأصابع يد يمنـى تريـد أن تصافحك وتصافح العالم بأسره... أنت السلام يا حصـة... ومنك السلام ومني الحب يا حصة...

يدي تريد مصافحتك... تريد أن تمسك بك وتضمك إلـى صدري.

ابتسمت وقالت مبتعدة في دلال:

-لا... ليس بعد... ليس قبل أسبوع.

راحا يضحكان بينما هي تمسك بماكينة الخلاقة الكهربائية وتبدأ حلاقة ذقنه.

الوحش الذي أقعى على باب المدينة

كان أبي يصور الوحش دائما لأهل المدينة ولي ولنفسـه على أنه لا يعدو أن يكون جروا صغيرا. ظل يصـوره لنـا هكذا لوقت طويل وكأن الجرو لا يكبر مع الـزمن. وكنـت أصدق أبي دائما لأنه أبي.

كان أبي يصطحبني معه رغم شبابي الغض – كلما خرج إلى مشارف المدينة- على غير رغبة أمـي- ومعـه أدوات الصيد زاعما في كل مرة أنه سيقتل الـوحش إن وقـع فـي طريقه. وكنا نعود في كل مرة دون أن نعثر على ضـالتنا. وكانت هناك فكرتان تصطرعان في عقلي... إما أن الوحش يهرب خوفا عندما يخرج أبي للصيد... وبذلك يتأكد قول أبي بأنه جرو... وإما أنه ليس هناك وحش على الإطلاق. ولكنا في آخر مرة خرجنا وجدنا نفسينا في مواجهـة الـوحش... وارتعد أبي فزعا... وكنت أرتعد أنا الآخر بالتداعي... كنـا نتراجع والوحش يتقدم... وتزايدت سرعتي في التراجع مـن الذعر حين رأيت الوحش يلتهم أبي. وعندما وجدت نفسـي داخل المدينة الأم غلقت الباب دون الوحش. وظللت أتراجـع وأتضاءل أمام الوحش وأمام الناس حتى صرت نطفـة فـي

رحم أمي فانتهى وجودي بالنسبة للوحوش وبالنسـبة لأهـل المدنية وأهالي المدن المجاورة الذين كانوا يعقـدون الآمـال على أبي وعلي في قتل الوحش. وعلا الوجوم الوجوه جميعا.

....

[٢]

احتوتني أمي رغم كل شيء. رغم كلام الناس عن تكور بطنها... رغم الهمز واللمز... راحت تدرأ عن نفسها الاتهام وتقوي اعتقادا بأني آخر حملها من زوجها الضحية.

وعندما كانت تخلو إلى نفسها، كانت تحـدثني بمكنـون صدرها... متاعبها... أشجانها... أحلامها في... الخـلاص من الوحش... كما كانت تحدث الناس بذلك. حتـى داخلهـم الاعتقاد... ولكن اعتقاد الناس بدأ يفتر شيئا فشيئا... داخلتهم الريب من طول ما مكثت في بطن أمي بعـد فتـرة الحمـل المعتادة.

إما أن الوحش يهرب خوفاً عندما يخرج أبي للصيد...

وبذلك يتأكد قول أبي بأنه جرو...

عايروا أمي بأن حملها كاذب... وأن ما ببطنها انتفاخ أجوف. حدثتني بذلك كنت أتشبث بالبقاء داخل رحمها خاصة كلما استرجعت منظر الوحش وهو يلتهم أبي. كان الناس وأمي يحلمون بالخلاص من الوحش وكنت أحلم بالخلاص من الخوف.

[٣]

وذات يوم لفظني رحم أمي بعد أن صار حجمي أكبر من أن يسعه. ولدت من جديد شابا يافعا... ولكن يكبله الخـوف من كل شيء من الوحش ومن الناس الذين يحبـونني ومـن الحب نفسه... رغم أني كنت تواقا إليه.

وكان أهل المدينة الأم يتساءلون كلما لاقوني متى سـنبر بالوعد وكنت أجيب متمهلا... قريبا... قريبا كـان سـيري وئيدا بسبب تضخمي السريع فقد كنت آكل كثيرا... وبنـات أيامنا لا يحببن السمنة وكنت أعمل على إنقاص وزني تقربا لهن دون جدوى وكان لابد من عمل شيء لأن أهل المدينـة بدأوا يسخرون من سمنتي وجعلوا مـن ضـخامة حجمـي موضوع فكاهاتهم. لكن الأمر لم يقف عنـد حـد الفكاهـة والسخرية فقد ضاق أهل المدينة بي بعد طول انتظار وراحوا

يقولون (إنه يلتهم طعام المدينة ولم يعد هنـاك إلا أن يلـتهم المدينة بمن فيها).

وتعالت أمواج الغضب في بحر المدينة المتلاطم. وتجمع الغضب ونفرت العروق في السواعد وهي تفتح باب المدينـة وتلفظني كما سبق أن لفظني رحم أمي... وأغلـق دونـي. ووجدت نفسي وجها لوجه أمام الوحش وخطر لـي قـول: (الوحش من أمامك وأبواب المدينة من خلفك مغلقة دونك) ثم تذكرت منظر أبي وهو يتراجع والوحش يتقدم فلم يبق أمامي سوى أن أقتله أو أقتله.

الغروب إلى مشرق

يهتز دائما لمشهد الغروب- كان ولا يـزال- ورغـم أن الغروب دائما يعقبه شروق إلا أنه كان عنده يعني الانتهـاء والقدم. لذا كان يحزن لمشهد الغروب. وإذا أمسـك بكتـاب يقرأه تقف عناه دائما عند آخر سطر في كل صفحة طـويلا وكأنة آخر سطر في الكتاب وكأن الصفحة التالية لن تشـرق بإضافة أو جديد.

وفي وداع الأصدقاء كان يبكي كأنه لن يراهم ثانية، كان يهرب إذا سنحت له الفرصة من مواقف الوداع، وبنفس القدر كانوا يهربون من وداعه بعواطفه الجياشة التي كانت تطبـع الكآبة على نفوسهم. وها قد جاء الدور كي يودعه الآخرون، ورغم أن مشهد الوداع لم يأت بعد إلا أن بوادره تتتابع عليه منذ الصباح قبل أن يخلي طرفه فهو قد نقل إلى جهة أخرى طالما سعى بدأب نحوها لمستقبلها الأفضل. وها هو الأمـر التنفيذي ينقله يصدر ويتصدره مشهد الغروب

ومع إشراقة الشمس قمت وصوب مكان عملك الجديد

يممت وجهك

الذي طالما بعث الكآبة في نفسه (يرفع اسمه من سـجل العاملين بالوزارة اعتبارا من اليوم وعلى جهات الاختصاص مراعاة كل فيما يخصه).

غروب... غروب... غروب ولا فكاك من ذلك وأنت لا تعرف إن كان هناك أحد سيحزن بصدق لفراقك رغـم مـا يعدونه لك من حفل وداع مراعاة لواجبات الزمالـة. قلـت لنفسك سيفرحون لغروبك عن وجوههم فقد كنت دائما حنبليا جهما طبعتك الأيام الجهمة بطابع الجهامة.

(يرفع اسمه من سجل العاملين بالوزارة)... هكذا بجـرة قلم جاء الغروب يا معشر الزبانية... وأنت لا تعرف مكانك الجديد بعد... نار أم جنة. وقد تأتي الرياح بمـا لا تشـتهي السفن. وفي حفل الوداع حاولت أن تكـون مرحـا فظهـر الجانب المشرق من شخصيتك لزملائك حتـى إنهـم تمنـوا بصدق لو استبقوك ولكن سبق السيف العذل. وقـال بعـض الحاضرين كلمات عاطفية طاغية وكأنها تأبين، وعدت إلـى بيتك كسيف البال. واستلقيت على السرير وقد استولت عليك الكآبة فنطقت الشهادتين وبعد أرق طويل غفوت ومع إشراقة الشمس قمت وصوب مكان عملك الجديد يممت وجهك.

في مواجهة الجمال

حين صعد إلى الباص كان مزدحما... كتل مـن البشـر متلاصقة... إناث وذكور. أخذ ركنا لنفسه وجد فيـه الحـد الأدنى لتفادي الزحام والعرق اللزج فقد كان الجـو صـيفيا مشبعا بالرطوبة. وكان هو متعبا جدا من طول انتظار الباص لذا راحت عيناه تجولان في أنحاء الباص بحثا عـن مكـان خال. ولعل ذلك مرجعه إلى أن التعب قد بلغ منه مبلغا دفعه إلى الشطط والجموح في الخيال بشكل عصبي وفاته وهو في هذه الحال أن يتأمل وجوه الجميلات من حوله كعادته عندما لا يكون متعبا يستغل طول قامته في إسقاط عينيه بين نهـود الراكبات ويتغلغل خياله في أثر عينيه كي يرسم بقية تفاصيل أجسادهن داخل مخيلته.

فجأة نهض شاب متنازلا عن مقعده لإحدى الجميلات من راكبات الباص. وكان هو متعبا فثار متظاهرا بـأن ثورتـه ليست لأنه متعب ويريد الجلوس ولكنه ادعـى الثـورة لأن الشاب الذي تنازل عن كرسيه لم يتنازل عنه لامرأة عجـوز أو رجل عجوز أو لامرأة حامل... وألقى محاضـرة علـى الركاب عن آداب الجلوس في الباصات. المـرأة أو الرجـل

العجوز أولا ثم الحامل ثم الآنسة ثم... إلى مـالا نهايـة... هكذا راح يحدثهم عن آداب الجلوس وفاته أن يحـدثهم عـن آداب الوقوف في الباصات ربما لأنه كان ممن يخالفون آداب الوقوف أحيانا ربما رغما عنه. وتابع هو محاضـرته عـن نظام الركوب في الخارج... في فرنسا وانجلترا وأوربا بوجه عام نقلا عن صديق له كان قد سافر إلى الخارج... ولكنـه ادعى المحاضرة لنفسه وكأنه هو الذي سافر إلى الخارج.

ساعدته المحاصرة على تحمل تعب الوقوف لعدة محطات تم خلا مقعد قريب فسارع إلى الجلوس عليه بعد أن اطمـأن إلى أنه ليس هناك عجوز أو حامل واقفة بالقرب منه خاصة وأن محاضرته عن أخلاقيات الجلوس في الباصات لم تمض عليها دقائق. عندما جلس انتابه خدر لذيذ بعد التعب من طول الوقوف على المحطة وفي الباص... بعد دقائق انتبه علـى فتاة جميلة تقف بعيدا عنه قلـيلا... راح يتأملهـا بـل راح يتفحص تفاصيل جسدها وود لو كان واقفا على مقربة منها

(ماذا كنت أو كان غيري يفعل في مواجهة الجمال)

كي يسقط عينيه بين نهديها المطلين من طاقة ثوبها ولكن التعب كان قد أخذ منه مبلغا. كما أنه يخشـى أن يقـع فـي التناقض إذا ماوقف لها خاصة بعـد المحاضـرة الطويلـة العريقة عن آداب الجلوس في الباص كما أنه كان يقف على مقربة منه رجل عجوز وامرأة عجوز... ود للحظة لـو أن أحدا أجلسهما كي ينهض هو ليجلس الجميلة... تكأكأ عليـه شيئان منعاه من الوقوف الفتاة: التعب والحرج. بعـد قليـل زايله التعب لكن الحرج ظل مستبدا به...اقتربـت المحطـة التي سيهبط فيها من الباص...والفتاه والعجوزان لم يجلسـوا بعد... وبسرعة قرر... وأومأ للفتاه بعينيه إيماءة تعني تنازله عن كرسيه لها... وظل جالسا في مكانه حتى اقتربت الفتـاة ووقف الباص في المحطة وهـرول هـو مسـرعا تشـيعه ضحكات السخرية... وحدث هو نفسه معزيا... (ماذا كنـت أو كان غيري يفعل في مواجهة الجمال).

مسالة إعجاب

كان حلم حياته أن يحضـر حفلـة شخصـية للمطـرب المشهور فقد كان يشرد عندما يستمع إلـى إحـدى أغانيـه ويستولي عليه الشجن وتدمع عيناه.

صار مطربه في نظره أخلص في محبته من عابد المداح الذي كان يستمع إلى قصته من عازف الربابة في بلدته، لكنه كان فقيرا لا يستطيع أن يدفع ثمن التذكرة، وحتـى بعـد أن جاء إلى القاهرة في طلب العلم بالجامعة، كان يترنم بأغـاني مطربه ويرسم له صورة وردية تصل إلى حد السذاجة ممـا جعله مثاراً لسخرية زملائه وموضوع دعابتهم.

ورغم ذلك ظل على حبه للمطرب... وذات يوم حدثـه صديق له بإمكان تحقيق أمنيته في حضور حفـل لمطربـه وسأل صديقه بلهفة عما إذا كان جادا فيما قال؟، فأكـد لـه صديقه ذلك، بل واصطحبه بالفعل إلى مدير أعمال المطرب المشهور حيث وجد مجموعة كبيرة من الشباب الذين في مثل سنه.

وزع مدير أعمال المطرب المشهور صورا مـن نـص الأغنية الجديدة التي سيغنيها المطرب في حفله القريب وعلي

هامش كل مقطع من الأغنية تعليمات بالتصفيق الحاد أحيانا وبالهتاف أحيانا وأحيانا أخرى بترديد كلمات وعبارات الغزل في صوت المطرب بل وفي شخصه. ثم وزع المدير تذاكر الحفل عليهم جميعا.

لاحظ هو أن تذكرته في مكان بعيد عن مكان تذكرة صديقة فسأله بسذاجة عن السبب، فغمزه صديقة وهمس في أذنه بأن ذلك لكي يتوزع الهتاف والتصفيق في جنبات الصالة.

وفي يوم الحفل دخل وعلي وجهه أمارات الرهبة وكأنه في محراب يتعبد، جلس في كرسيه وراح يراجع المهمة الموكلة إليه... الهتاف والتصفيق الحاد والغزل قبل وأثناء وبعد كل مقطع. وبدأ المطرب في الغناء، وعينه هو على التعليمات عند آخر حرف في كل مقطع.

وما إن ينتهي المطرب منه حتى يسرع في تنفيذ التعليمات المكتوبة هتافا أو تصفيقا أو غزلا في المطرب وتتردد الهتافات

وعلي هامش كل مقطع من الأغنية تعليمات بالتصفيق
الحاد أحياناً

والتصفيق والغزل في جنبات الصالة عازفـة سـيمفونية هزلية.

وينتهي الحفل وعلى وجه صاحبنا بلاهة حقيقية التفتـت عندها نظرات صديقة وبقية (الهتيفة) وسأله صديقه:

(مالك... ألم تعجبك الأغنية؟...)

قال في تعاسة: (لم أسمعها).

فسأله صديقه:(...والمطرب؟...)

قال: لم أره!

الرقص على السلم

لم تفارق عقلي تجربتي المريرة معها منذ رقصت علـى السلم... كنت موظفا جديدا في كل شيء... جديدا على كـل شيء... على العمل... على حياة المكاتب وعلى موظفـات المكاتب بوجه خاص، فثمة فارق كبير بين زمالة الفتيات في الجامعة، وزمالة النساء في المكاتب بين الملفـات والأوراق الحكومية... ثمة فارق بين البراءة والحنكـة، بـين التلعـثم ودربة اللسان... كنت جديدا صامتا متلعثما... وكانت محنكة دربة اللسان... لا مثقفة... تتكلم في كل شيء وفي لا شيء.

في البداية لم تستخدم دربة لسانها معي... لكنها استخدمت حنكتها... تكلمت العيون أولا... عيناها الثاقبتـان وعينـاي الخاويتان اتفقتا على كل شيء أردته هي، ثم بعد ذلك وفـي غيبة الانهماك في العمل للحظـات مـن جانـب مـوظفي وموظفات المكتب دفعت نحوي بسرعة ورقة ليس فيها سوى كلمتين: (لا بأس الساعة ٦) وقد كـان.. التقينـا وراحـت تتحدث عن الحب والعشق بينما حدثتها أنا عن الزواج ربمـا بسبب قلة راتبي الذي لا يتحمل مصاريف العشق. رأيت في عينيها الانبهار... ربما لأنها أحست أنها مرغوبة، واستمرت

لقاءاتنا دون حسم لفكرة الزواج لفترة أعقبتها رسالة موجزة منها تطلب مني أن أعتبر علاقتنا منتهية، ورقصت على السلم: لا زواج ولا عشق.

عرفت فيما بعد أنها تزوجت من رجل مسن ناجح ماليا. ظللت فترة أسلط نظرات الامتعاض على وجهها كلما حانت منها التفاتة نحو تقتضيها دواعي العمل الذي يجمعنا.

بعد فترة هجرت العمل الحكومي، ثم قمت بمشاريع كثيرة حققت لي نجاحا ماديا كبيرا، لكن تجربتي المريرة معها لم تكن لتفارق عقلي أبدا. بثثت حولها عيوني، طلبت إليهم محاصرتها بأخبار نجاحي، وكان ما توقعت، قصت عليهم في فخر قصة طلبي الزواج بها، وأيقنت أنا ساعتها أنني أستطيع أن أصل ما انقطع. أوعزت إلى أصدقائي أن يدبروا لقاء لنا. وفي اللقاء رحت أنفث سمومي في أذنيها: (الحب الذي لم يفتر لحظة... المال

انسحبت في صمت، وراحت ترقص على السلم على

أنغام طبولي

الذي لا قيمة له بدونها) وكانت كلها آذان. استسلمت...
حدثتني عن عدم التوافق بينها وبين زوجها سنا... وفكرا، وعن تجربتها المريرة معه.

وبعد أسبوع عرفت خبر طلاقها بعـد أن علـم زوجهـا بأمرنا دعوتها إلى حفل صغير أخبرتها بأن مشاريعي تجعلني لا أجد لها وقتا أو مكانا في حياتي، وكانت نظرات الـذهول اليائسة... انسحبت في صمت، وراحت ترقص على السـلم على أنغام طبولي.

طبخة مسبكة

عثمان حلم حياته منذ اشتغل مساعد طباخ ثم طباخ، كان أن يطبخ طبخة مصرية مسبكة، طبخة لها مذاق... فهو منذ عمل في البيوت والفنادق وهو يطبخ (السوتيه) أو كما نقـول نحن (المسلوق) وهو منذ اشتغل عند الجنرال الإنجليزي وهو يلح عليه وعلى المدام أن يذوقوا (المسبك) من يد عثمان ثـم سيطلبونه هم- بالتالي – بأنفسهم بعد ذلك. ولكن ولا استجابة من جانبهم ولا حتى كلمه حلوة. وهو بالتالي منذ عمل طباخا وهو مكتوب عليه أن يأكل (السوتيه) أو قل بقايـا السـوتيه. وعزاؤه الوحيد أنه حين يعود إلى بيته يجد زوجته (بخيتـة) التي يحبها قد أعدت له الطعام المسبك الذي يحب ويشـتهي ولكن اشتهاءه الحقيقي كان أن يذيق الناس الذين عمل عندهم طوال فترة حياته... وكلهم كانوا من الأجانب طعم المسـبك من يد عثمان كما يقول هو دائما.

وجاء الفرج أو كما ظن هو جاء الفـرج حـين خـرج الإنجليز وسافر الجنرال وزوجته إذ تمكن من إيجـاد عمـل لنفسه عند أسرة مصرية ثرية. دخل البيت وكان أول شـيء قيل له من سيدة البيت: (عثمان أنت طبعا شايف البيه كبيـر

في السن وأنا بطني حساسة، عشان كده إحنا بنأكـل سـوتيه طبعا أنت طول عمرك بتشتغل عند الخواجات وعارف إيـه سوتيه).

- طبعا ياست هانم لكن كذاب اللي يقول لحضـرتك إن المسبك يضر أو يوجع البطن. المسبك يا ست هانم من إيـد عثمان... عثمان بالذات يشفي العليل.

-عثمان اسمع الكلام... أنا لما أقول حاجة يعني تتنفذ... فاهم يا عثمان.

-فاهم يا ست هانم... لكن...

-مفيش (لكن) يا عثمان ع المطبخ بسرعة.

وطوى عثمان قلبه الكسير على حلمه الأبدي... جرحـه الأبدي أن يطبخ الطبخة المصرية المسبكة... ويوما فاض به ورفض أن يتناول طعامه وما إن رأته زوجته الحبيبة (بخيتة) حتى قالت له:

-مالك يا عثمان... اليومين دول متدعبل وبـان عليـك السن.

-تعبان يا بخيتة.

-باين عليك يا عثمان. علشان كده... وعشان أنا كمـان بطني وجعاني طبخت النهارده (السوتيه) قال بحدة:

-بخيتة.

-نعم يا عثمان.

-أنت طالق.

كتب للمؤلف

١- شاهد عيان (مجموعة قصصية) الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٥.

٢- النمل الأبيض (مسرحية) الهيئة العامة للكتاب عـام ١٩٧٧.

٣- تنويعات على نغمة الجوع.

٤- رجال بلا ظلال (مسرحية مترجمة عن جـان بـول سارتر).

تحت الطبع:

١- (ديك مدخاش دنيا) (مسرحية).

٢- (مجموعة شعرية).

فهرست